قضية فلسطين الكبرى

في خطب الإمام الأكبر

الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء قدس سره

مكتبة
مؤمن قريش
moamenquraish.blogspot.com

دار الهادي

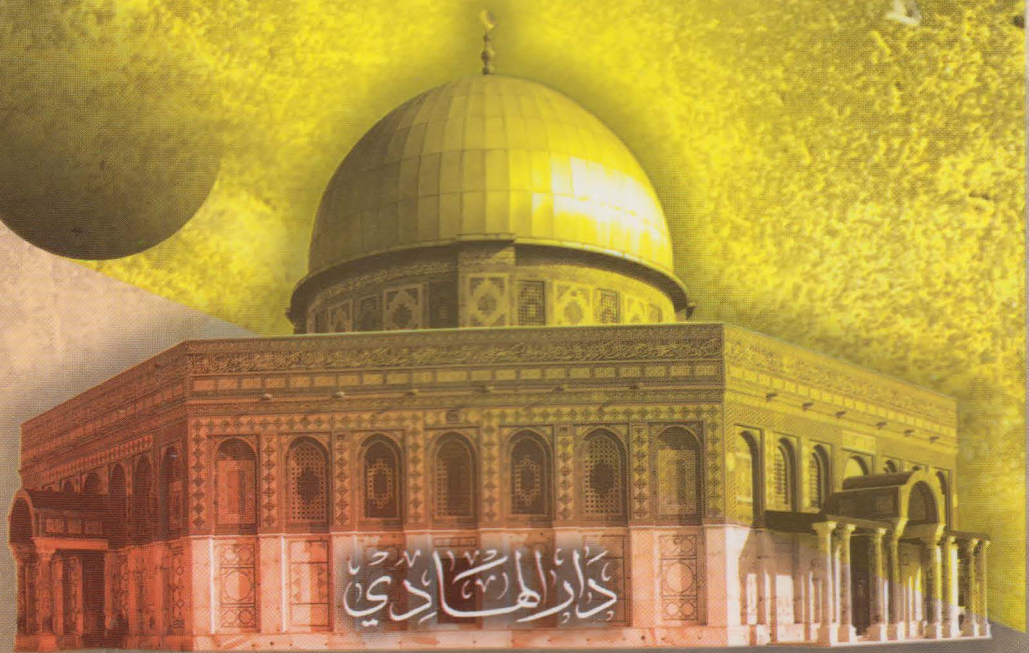

قضية فلسطين الكبرى

في خطب الإمام الأكبر

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٨٩٦٣٢٩/٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان

E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

قضية فلسطين الكبرى

في خطب الأمام الأكبر

الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء «قُدسّ سرّه»

دار الهادي
للطباعة والنشر والتوزيع

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «وستأتي اليهود من الغرب لانشاء دولتهم بفلسطين.

قال الناس: يا أبا الحسن أنّى تكون العرب؟

أجاب: آنذاك تكون مفككة القوى مفككة العرى غير متكاتفة وغير مترادفة.

ثم سئل عليه السلام: أيطول هذا البلاء؟

قال: لا، حتى إذا أطلقت العرب أعنتها ورجعت إليها عوازم أحلامها عندئذ تُفتح على يدهم فلسطين وتخرج العرب ظافرة وموّحدة، وستأتي النجدة من العراق كُتب على راياتها القوة، وتشترك العرب والإسلام كافة لتخلص فلسطين، معركة وأي معركة في «جلّ البحر» يخوض الناس في الدماء ويمشي الجريح على القتيل. ثم قال عليه السلام: وستفعل العرب ثلاثاً وفي الرابعة يعلم الله ما في نفوسهم من الثبات والإيمان فيرفرف على رؤوسهم النصر.

ثم قال: وايم الله يُذبحون ذبح النعاج حتى لا يبقى يهودي في فلسطين».

نبذة عن حياة الإمام الكبير

الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء رحمه الله

ولادته ووفاته:

وُلد المغفور له الشيخ «محمد الحسين آل كاشف الغطاء» في مدينة «النجف الأشرف» عام ١٢٩٤هـ الموافق ١٨٧٧م.

وتُوَفي يوم الاثنين في ١٨ ذو القعدة سنة ١٣٧٣هـ الموافق ٩ تموز ١٩٥٤م. ودُفن في «وادي السلام» بجوار أمير المؤمنين عليه السلام.

دراسته واساتذته:

وبعد أن أكمل دراسة المقدمات والسطوح المتعارفة في الحوزة العلمية، أقبل على حضور حلقات علماء عصره، فصار يدرس علم الأصول على يد آية الله الشيخ محمد كاظم الخراساني رحمه الله، وعلم الفقه على يد آية الله السيد محمد كاظم اليزدي قدس سره، وعلم الحديث والأخبار على يد المُحدِّث النوري رضوان الله عليه، وعلم الكلام والحكمة والفلسفة على يد العلّامة الحكيم الشيخ محمد باقر الاصطهباناتي، والشيخ محمد رضا النجف آبادي، والشيخ أحمد الشيرازي رحمهم الله.

كما درس عند الميرزا محمد تقي الشيرازي، والفقيه الهمداني، والمحقق الأصفهاني رضوان الله عليهم.

مرجعيته:

اشتهر الشيخ كاشف الغطاء رحمه الله بالبراعة في العلوم النقلية والعقلية كالفقه، والأصول، والفلسفة، والعرفان، والأدب والتاريخ فاتجهت إليه الأنظار ورجع الناس بالتقليد إليه بعد وفاة استاذه السيد البزدي قدس سرّه، فاستقل بالمرجعية العامة وإصدار الفتاوي والتصدي إلى أمور التقليد.

مؤلفاته:

كتب الشيخ كاشف الغطاء قدس سره في كافة المجالات العلمية، وقد وصلت مؤلفاته إلى حوالي ٦٧ كتاباً ما بين مطبوع ومخطوط، أهمها:

١ - الدين والإسلام والدعوة الإسلامية.

٢ - المراجعات الريحانية.

٣ - جنة المأوى.

٤ - الفردوس الأعلى.

٥ - الآيات البينات.

٦ - أصل الشيعة وأصولها.

٧ - التوضيح في حال الإنجيل والمسيح.

٨ - الأرض والتربة الحسينية.

٩ - السياسة الحسينية.

١٠ - تحرير المجّلة.

خصائصه:

امتاز الشيخ رضوان الله عليه بحافظة **قوية**، وحضور البديهة، وحدّة

الذهن وتوقده، وامتاز بسحر البيان والخطابة مع الجرأة والصوت الجهوري، فكان يسترسل في حديثه البديع كأنه حفظه عن ظهر الغيب، وفي هذا المجال يقول عنه الشيخ آغا بزرك الطهراني رحمه الله: «ولا أغالي إذا قلت أنه أخطب خطباء الشيعة».

كما امتاز قُدسّ سره بتبحّره في العلوم الفقهية والأصولية والفلسفية فهو ذلك الشخص العالمي في علمه وفقاهته واجتهاده وجامعيته وتضلّعه في الفقه وأصوله، وتبحره في الحكمة والفلسفة العالية والمعارف الإلهية والمطالب العرفانية وهو النابغة في العلوم نبوغاً باهراً وفي هذا يقول المحقق الطهراني: «والحقيقة أنه من مجتهدي الشيعة الذين غاصوا بحار علوم أهل البيت عليهم السلام فاستخرجوا من تلك المكامن والمعادن جواهر المعاني ودراري الكلم».

ويقول العلاّمة السيد محمد علي القاضي رحمه الله عنه أنه: «أشهر مشاهير علماء الإسلام في الشرق، وأبعدهم صيتاً واغزرهم علماً في العالم الإسلامي، بل هو من عظماء المجتمع الإنساني وكبراء العالم البشري، ومن الشخصيات الأفذاذ، وأكابر شيوخ الإسلام، وأعاظم فقهاء الشيعة الاعلام، وأحد أركان الدين المجددين وروّاد النهضة ودعاة الاصلاح ورث زعامة الدين عن آبائه الفطاحل واجتمع فيه خصال الكمال والفضائل وقام بالأعمال الجلائل».

كما امتاز رحمه الله بغيرته الشديدة على الإسلام والمسلمين، فكم كان يلتهب غيرة وحماسة على شؤون المسلمين وأحوالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وقد أثّر فيه استعمار الدول الأجنبية للبلاد الإسلامية وما آلت إليه حال المسلمين من الذل والقهر والغلبة فصار يخطب ويكتب ويحثّ ويحرض المسلمين على الجهاد والمقاومة ورفض الذّل وطرد المحتل والمتتبع لكلماته ومصنفاته يعرف مدى الحرقة واللوعة التي كان يعيشها في نفسه ومما كان يقوله:

ولـي كـل يـوم مـوقـف ومقـالـة أنادي ليوث العرب ويحكم هبّوا
فـإمّـا حيـاة تبعـث الشـرق نـاهضـاً وإمّا ممات وهو ما يرقب الغرب
وقفت على احياء قومي براعتي وقلبـي وهـل إلا البـراعـة والقلـب

وكان احتلال الصهاينة لفلسطين من أكثر الحوادث التي أهاجت عنده كوامن الأحزان واثارات لواعج الأشجان فصار يخطب وينشر المقالات والفتاوي التي تحث المسلمين على استرجاع القدس وطرد المحتل وهو القائل: «نكبة ضياع فلسطين أعظم من ضياع الأندلس».

وقد حضر المؤتمر الإسلامي في القدس عام ١٣٥٠هـ الموافق ١٩٣١م وخطب خطبة ارتجالية تاريخية كان لها الدوّي والصدى في نفوس الحاضرين.

وها نحن اليوم نعيد طباعة هذه الكلمات والخُطب التاريخية التي تبعث في المسلمين الشجاعة والقوة وتبث فيهم روح المقاومة والجهاد والحقيقة أنها وإن أُلقيت قبل عشرات السنين إلا أنها لم تفقد قيمتها وأهميتها لما فيها من تأثير على العقول والقلوب.

نسأل الله تعالى أن يتغمد روح الشيخ كاشف الغطاء في واسع رحمته وأن يحشره مع الشهداء والعلماء والأولياء وحسن أولئك رفيقاً.

فتـوى

الإمام الكبير حجة الإسلام والمسلمين العلامة الراحل

الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء

بشأن قضية فلسطين

من النجف الأشرف - في ٥ جمادى الثاني ١٣٥٧.

إلى جمعية الدفاع عن فلسطين - بغداد

نمى إلينا عن بعض ما قدرتموه من جعل يوم الجمعة (٥ آب ١٩٣٨) يوم فلسطين، وأن تقوموا مع الأمة العراقية التي لا تزال مشكورة المساعي في مساعدة شقيقتها بأعمال عساها تكون نافعة إن شاء الله.

ورأينا أن من واجبنا أن نقول كلمة في الموضوع تكون كنداء عام... وها هي تصل إليكم للنشر... تدفعها الزفرة، وتمدها العبرة، وتؤلفها شظايا القلب المتقطعة، وتؤججها نيران الآسى والآسف من هذه الأمة المتمزقة... نعم! منها وعليها... الأمة التي أصبحت لا من الأحياء فترجى ولا من الأموات فترثى. وعسى أن يحدث الله بعد ذلك لها أمراً، ويجعل لها من أمرها فرجاً ويسراً.

محمد الحسين

«وإليك نص الفتوى»

نداء عام

أيها الإسلام!...

أيها العرب!...

لا... بل أيها الناس ويا أيها البشر!...

أصبحت الحالة التي بلغت إليها فلسطين الذبيحة مشاهدة محسوسة لكل أحد. ونحن نقول - وما زلنا نقول -: أن قضية فلسطين ليست قضية تخصها، وليست هي قضية فلسطين فقط، بل قضية العرب بأجمعها. فإذا خرجت فلسطين من هذا الجهاد ظافرة فقد ظفرت العرب وفازت، وإذا - لا سمح الله - تغلبت عليها الدولة الظالمة والصهيونية الغاشمة فقد باءت العرب بالذل والخسران، لا بل بالموت والعار المخلد.

وكنا نقول أيضاً - ولا نزال نقول -: أن الدولة التي احتلت فلسطين كأنها أخذت على نفسها من يوم قيامها بهذا الاحتلال الغاشم غير المشروع أن لا تقيم للعدل وزنا ولا للحق معنى ولا تصغي إلى أية حجة ومنطق... فكان موقع الاحتجاجات والمقالات من سمعها موقع الهواء في شبك ممزق! ولذلك ذهبت تلك الاحتجاجات من الاقطار العربية والإسلامية، مدّة عشرين سنة، كلها سدى... بل ما افادت سوى الشدة والعناد، والتمادي في الغي والفساد.

وعلى فرض أنه كان للاحتجاج في الزمن الغابر معنى وفيه ومضة أمل أو لمضة رجاء... أما اليوم فقد حقت الحقائق وصرح الزبد عن محضه، وجازت القضية عن دور الاحتجاج والأقوال إلى دور الأعمال.

وقضية العمل منوطة إلى كل عربي، بل كل إنسان، بمقدار الحد من غيرته وشعوره، ومبلغ حظه من الإنسانية. فمن كان يجري في عروقه الدم الحي الشريف فلا ريب أن شرف عنصره يهيب به ويدفعه إلى اللحوق باخوانه في فلسطين والجهاد معهم، ولا ينتظر أن تأتيه فتوى المفتي بوجوب الجهاد، بل فتوته تسبق الفتوى وتعرفه بواجبه بوحي من ضميره وشرف وجدانه.

فيا أيها العرب!... ويا أيها المسلمون!... بل يا أيها البشر ويا أيها الناس!

أصبح الجهاد في سبيل فلسطين واجباً على كل إنسان لا على العرب والمسلمين فقط. نعم! هو واجب على كل إنسان لا بحكم الشرائع والأديان فقط بل بحكم الحس والوجدان، ووحي الضمير وصحة التفكير.

والخطة العملية في ذلك هي: أن من يستطيع اللحوق بمجاهدي فلسطين بنفسه فليلتحق بهم، وأني ضمين أنه كالمجاهدين مع النبي ﷺ - في «بدر»، فإن المقام أجلى وأعلى من ذلك المقام، مقام شرف وغيرة وحس وشعور، لا مقام طلب أجر وثواب، وإن كان كل ذلك بأعلى مراتبه.. ومن لم يستطع اللحوق بنفسه فليمدهم بماله، إما بتجهيز من لا مال له ليلحق بهم، أو بارسال المال إلى المجاهدين وعيالهم وأطفالهم. ومن عجز عن كل ذلك، فعليه أن يجاهد ويساعد بلسانه وقلمه ومساعيه جهد إمكانه... وهذه هي أدنى المراتب.

وليكن كل أحد على علم جازم أن القضية قضية موت العرب وحياتها. وليعلم ناشدو الوحدة العربية والإسلامية أنهم لا يجدونها أبداً إلا بنصرة فلسطين، فإن انتصرت - بحول الحي وقوته - فما يرومونه من الوحدتين في قبضة أيديهم وعلى كثب منهم، وإن كانت الأخرى - لا سمح الله - فأين العرب وأين الإسلام حتى تكون لهم وحدة أو تتطلبها لهم

القضية! . . . نكون كما يقول أرباب الفنون «سالبة بانتفاء الموضوع».

هذه دعوتي وندائي العام أبعثه إلى عموم العرب والإسلام.

ويشهد الله لولا أني قد تجاوزت العقد السادس من العمر مع تزاحم أنواع العلل والاسقام على هذه العظام النخرة، لكنت أول من يلبي هذه الدعوة، ولشخصت بنفسي اليوم إلى تلك البلاد المقدسة كما شخصت إليها بالأمس.

وإنه لعزيز علي أنه لم يبق عندي من النصرة لها إلا هذه الكلمات، وعبراتي التي تسبق العبارات، وتوقد لاعج الزفرات. . وعند الله احتسب كل ذلك، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

النجف الأشرف **٥/٦/١٣٥٧هـ**

محمد الحسين
آل كاشف الغطاء

فتوى ثانية للفقيد

نشرت في الصحف العراقية بالعنوان التالي:

اعلان الجهاد المقدس لإنقاذ فلسطين

أصدر سماحة المجتهد الكبير العلامة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء الفتوى الخطيرة التالية في سبيل انقاذ فلسطين:

بسم الله الرحمن الرحيم وله الحمد

من العراق - النجف الأشرف

١٥ ذو القعدة ١٣٦٦هـ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

طلب مني بعض الأعاظم ارسال نسخة من الفتوى التي كنت اصدرتها في لزوم الدفاع عن فلسطين. والباعث على هذا الطلب ما وصلت إليه هذه الأرض المقدسة في محنتها الحاضرة بعد كفاح ثلاثين حولاً، والتضحيات بالأنفس والأموال التي تفوق حد الاحصاء.

ونحن نرى، في الحال الحاضر، أن المحنة والبلوى قد تجاوزت حدود الفتوى، وأصبح كل ذي حس من المسلمين يفتي له وجدانه ويوحي له ضميره وجوب الدفاع عن فلسطين بكل ما في وسعه، ويستهون ببذل العزيزين (النفس والمال) في هذا السبيل واعلان الجهاد المقدس.

فلا تهنوا أيها المسلمين... ولا تتوانوا وأنتم الأعلون... ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ﴿و ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

النجف الأشرف محمد الحسين

آل كاشف الغطاء

صرخة داوية لفلسطين الدامية

من الإمام حجة الإسلام آية الله «كاشف الغطاء» لعموم المسلمين ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

أيها المسلمون:

نشرت الصحف العراقية عليكم نداء عاماً منا في جواب الكتب التي وردتنا من لفيف من الشباب البغدادي النجيب ومن غيرهم، وكان ذلك قبل اعلان الحرب الرسمي - أي قبل ١٥ أيار -.

أما اليوم وقد اشتبكت الدول العربية، وأعلنت حربها لليهود لتطهير البلاد المقدسة من رجس الصهيونية.. فقد أصبح جميع العرب في حالة حرب.

والمصيبة العظمى التي لعلها أعظم من مصيبة الصهيونية هي: أن المسلمين، والأخص العراق بحدته، وعشائريه، وزعمائه، وشبابه، وسائر طبقاته.. لا يزالون يغطون في نومهم العميق.. لا يحسون بهذا الحس ولا يشعرون بهذا الشعور كي يقوم كل واحد بواجبه، ولا يزالون يعمهون في سكرتهم، ويتمتعون في شهواتهم ولهوهم.

أيها المسلمون:

أتحسبون أن اليهود إذا غلبوا على فلسطين - لا سمح الله - يتركون العراق والحجاز وغيرها من الاقطار العربية؟!.. أيهون عليكم أن تصبحوا

رعايا لاشقى أمة في الأرض: اليهود والصهاينة؟!

فإن كنتم لا تحضرون ميادين الحرب مع إخوانكم فلا أقل من أعانتهم بجمع الأموال والعتاد والسلاح.

وكان اللازم أن تكثروا الاكتتابات الشعبية في كل مدينة، وفي كل قبيلة، ومن كل زعيم، ومن كل تاجر وذي ثروة.. ثم تمدونهم بالتضرع والدعاء إلى الله - جل شأنه - في كل جامع، وفي كل مسجد، وفي كل مرقد من المراقد الشريفة.. تتضرعون إليه - تعالى - وتضجون بالعويل، خاضعين باكين، في أن يمد إخوانكم الذين في المعارك وتحت حمم القنابل بالصبر والثبات، ويكتب لهم الفوز والظفر.

أيها المسلمون:

قد برز اليوم الإيمان كله إلى الشرك كله.. وعادت الحروب الصليبية بابشع صورها، وتألبت دول الكفر باجمعها على الإسلام باجمعه.

أتعرفون ما معنى «الحروب الصليبية»؟... هي اتفاق دول الغرب على محو كلمة الإسلام من صفحة الوجود، كما صنعوا في القرن السادس زمن صلاح الدين الأيوبي.

أفلا يجب عليكم - أيها المسلمون - أن تنهضوا لحفظ كرامتكم وبلادكم من ألد أعدائكم؟

واعلموا أن الله - سبحانه - لا يجعل النصر لكم إلا إذا انقطعتم إلى الله، وتركتم الملاهي والمقاهي والسينمات، وتجعلونها حراماً عليكم حتى ينصر الله إخوانكم في فلسطين. فإن رجعتم إلى الله وانبتم، ورفضتم المحرمات والمنكرات، وأخذتم بالدعوات والتضرعات.. فأنا الضمين لكم بالله - جل شأنه - أن يكون الفتح لإخوانكم والنصر وقفاً على

جيوشكم، وإلا فخزى الدنيا وعذاب الآخرة!

اللهم أشهد، فاننا قد بلغنا وانذرنا، وإليه الحجة البالغة.

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾.

النجف الأشرف **محمد الحسين كاشف الغطاء**

نداء لعموم المسلمين

بشأن محنة فلسطين

بسم الله الرحمن الرحيم

ماذا تجدي الفتوى ونحن لا نزال نقول! إن محنة فلسطين من المسلمين أعظم من محنتها بالصهيونيين!

وسر هذه العقدة: أن المسلمين - حتى الآن - تمر عليهم قضية فلسطين كقصة من القصص التاريخية... يمرون عليها لاهين ساردين.. تطرق أسماعهم ولا تمض عواطفهم، ولا تخرق شغاف قلوبهم، ولا يعرفون أن البلية لو كانت تخص فلسطين لربما هان الأمر وخف الرزء، ولكن الخطر والغرض هو استملاك جميع البلاد العربية والقضاء على الإسلام والمسلمين!

ولو أن كل فرد من المسلمين يحس بجمرة المصاب، ويعتقد أن شعلة هذه الكارثة واصلة إليه قريباً لا محالة، لكان لكل شعب ولكل بلاد شأن غير هذا الشأن ونهضة غير هذه النهضة، ولما استقبلوا هذه البلية بهذه البرودة.

الفتوى المثيرة النافعة هو أن يفتي لكل إنسان ضميره، ويوحي إليه وجدانه، ويحفزه إلى العمل الجدي اخلاصه.

وحركة كل مسلم على مقدار علاقته من الإسلام، ورابطته بالدين، وحظه من الغيرة الإسلامية.

أما هؤلاء الساكتون، أو المثبطون الذين يثبطون العزائم ويبذرون بذور الشك والوساوس، فالكشف عن حالهم موكول إلى غيرنا... ولكنا نقول:

أيها العرب!... أيها المسلمون!...

لا يختلجكم الشك والريب، فإن البلية على كل واحد منكم والاستعباد - لا سمح الله - لكل شعب من شعوبكم، وإن معابدكم وجميع مقدساتكم في خطر هائل وبلاء نازل.. فانهضوا نهضة تحفظ كرامتكم وتصون مقدساتكم، فإن دول الغرب قد استكلبت عليكم، وأن اليهود الصهاينة سوف يغزونكم مرة أخرى ويستلبوا أراضيكم، فاغزوهم واسترجعوا أراضيكم قبل أن يغزوكم.

ولا ينبئك مثل خبير. والله المستعان.

النجف الأشرف **محمد الحسين كاشف الغطاء**

خلاصة الحديث مع السفير الأمريكي

يقول الشيخ كاشف الغطاء رحمه الله:

وقد زارني قبل أشهر في هذا المكان السفير الأمريكي (برتون بري الحالي في بغداد) مع كاتبه وترجمانه، دخل المكتبة ثم جلس معي فقلت له: إن الشريعة الإسلامية الجامعة لجميع الفضائل تأمرنا باكرام الضيف وتحية الزائرين والترحيب بالغريب مهما كان دينه وعنصره عدواً كان أم صديقاً ونحن تمسكاً بهذه الآداب نحييك ونرحب بقدومك وبزيارتك وإن كانت قلوبنا دامية منكم معاشر الامريكيين لأنكم طعنتمونا بالصميم طعنة نجلاء لا يمكن السكوت عنها والصبر عليها وكنا نسميكم أيام عزلتكم في بلادكم وعدم اختلاطكم بالدول الغربية والأخذ من أخلاقها السوداء رجالاً مثاليين وملائكة هبطت من السماء إلى الأرض لنفع البشر ولكن بعد نكبة فلسطين وتسليط أراذل الوحوش من الصهيونيين على أصحاب البلاد آلاف السنين وإجلاء تسعمائة ألف نسمة من الأعزة والأشراف وأرباب النعم والثروة أصبحوا مشردين في الصحاري والقفار يلتمسون القوت وما يستر البدن ويمسك الرمق أذلاء بعد العز، وفقراء متسولين بعد الغنا والثروة، وهذه الظلامة والقسوة لم يحدّث التاريخ بمثلها حتى من (نيرون) الذي تضربون المثل بظلمه.

فقال السفير لسماحته: هذه أمة ضعيفة ظلمها هتلر وشردها من أوطانها فأصبحت بلا وطن ولا مأوى ونحن عادتنا الرحمة والشفقة ننصر

المظلوم ونعطف على الضعيف.

فقطع سماحته كلام السفير، وقد ارتعش من شدة التأثر والغضب وقال: تعساً وبؤساً لهذه الرحمة تنصرون المظلوم بما هو أفظع ظلماً وأشد هضماً ترحمونهم بأن تظلمونا وتسكنونهم في بيوتنا وتشردونا، هلا أسكنتموهم في بلاد أمريكا وأراضيها الواسعة ثم إذا كان من شيمتكم الانتصار للمظلوم فقد أصبح العرب اليوم هم المظلومون فلماذا لا تنتصرون لهم وترجعونهم إلى أوطانهم وها هي فرنسا حليفتكم وحليفة الانكليز تصب صواعق الحديد الجهنمية على أحرار العرب في الجزائر وتونس ومراكش ظلماً وعدواناً فلماذا لا تنتصرون لهم وتمنعون فرنسا من هذا الظلم الفظيع.

فقال السفير: إن هؤلاء كانوا فقراء وبالاحتلال الفرنسي أصبحوا أغنياء وتمردوا على فرنسا فلا بد لها من تأديبهم.

فقال سماحته: إن هذا منطق غريب فإن فرنسا ما أغنتهم من أموال باريس ومرسيليا فإن صح أنهم صاروا أغنياء فمن بركات بلادهم وخيراتها التي تأخذ فرنسا الألف منها وتعطيهم الواحد. وأهالي المغرب ما اغتصبوا أرضاً ولا نهبوا مالاً من هذه الدولة الفرنسية حتى تحاربهم على اخراجهم منها بل هم الغاصبون والناهبون فليخرجوا من بلادهم ويكفوهم شرهم ويتركوا البلاد لأهلها. وهذا الاستعمار الغاشم منكم ومن حلفائكم فرنسا والانكليز هو الذي ارعب الناس وصاروا يفرون منه إلى الشيوعية وإلا فأي صفة حسنة في الشيوعية حتى يرغب الناس فيها ويتركوا أديانهم المقدسة ومباديهم الصالحة.

فقال السفير الأمريكي: إني دخلت إلى مكتبتكم هذه فأعجبتني فهل فيها من الكتب ما هو ضدنا؟ فقال له الإمام: ما هو شأن الكتب؟ وما هو مقدار تأثيرها؟ بل القلوب كلها ضدكم وتقطر دماً من فظاعة ضربتكم التي

قصمتم بها ظهر العرب.

وإن قضية فلسطين ومصيبتها الهائلة لا يمكن الصبر عليها والسكوت عنها وليست هي مثل سائر ما اغتصبته الدول العاتية الظالمة من الأقطار الإسلامية كالفردوس الضايع (الأندلس) وأمثالها فإن الأندلس كانت لأسبانيا وبعد ثمانية قرون استرجعها أصحابها السابقون وأكثر الذنب على ملوك المسلمين في ذلك العصر ونشوب الخلاف والحروب فيما بينهم فاغتنم العدو الفرصة وقضى عليهم وأخرجهم من تلك الجزيرة بعد أن عمرها العرب وجعلوها جنة من جنان الخلد ولكن يهون الخطب فيها، إنها ليست من بلاد العرب بل هي واقعة على الحاشية والهامش، أما فلسطين فهي في قلب بلاد العرب وهي لهم وبتصرفهم منذ آلاف السنين قبل الإسلام وبعده وليس لليهود أي حق فيها كما برهن على ذلك المؤرخون قديماً وحديثاً وما كان من المحتمل أن تقع في حوزة اليهود وينشأوا فيها دولة لولا إمدادكم وعتادكم لهم ولولا تخاذل الحكومات العربية حسب اشارتكم بعد أن انتصرت الجيوش العربية وأحاطت بعاصمتهم (تل أبيب) فأسلموا تلك البلاد المقدسة وأهاليها الأمة العربية ذات الشمم والشرف التي كافحت الانكليز والصهاينة خمسة وعشرين سنة بأبطالها ورجالها ونسائها وأطفالها من دون مساعدة ولا معين من أي دولة من دول المسلمين حتى عجزت دولة الاستعمار وأذنابها الصهاينة من الاستيلاء عليهم فدبروا لهم تلك الحيلة وضربوههم بنفس الحكومات العربية التي تظاهرت أولاً بنصرهم ثم تراجعت بغدرهم وإذا لم يغسلوا هذا العار ويردوا البلاد لأهلها فالمسؤلية العظمى عليهم أولاً ثم على الشعوب العربية في السكوت عن الخائن أعظم من خيانته:

لو كان فينا حياة يا جميل لما طالت لدينا حياة الخائنين سنة
عندي سواء لعمري في الخيانة من خان البلاد ومن أبقى على الخونة

وأنتم أيها الدولة المتجددة أيها الامريكان قد غلط رئيسكم السابق

(وترمان) وتأثر به اللاحق (ايزنهاور) - الحاضر غلطة شوهاء ولطخة سوداء في جبين الشعوب الامريكية يبقى عارها وشنارها عليكم وعلى الانكليز طول الأبد، وإذا لم تتداركوا هذه الغلطة وتخرجوا من هذه الورطة، فاعلموا يقيناً أن العدو سوف يتغلب عليكم ويبيدكم ويفنيكم وسيعتنق أكثر العالم تلك المبادىء الفتاكة وتنصهر تلك المبادىء التي تسمونها (ديمقراطية) في مبادىء السوفيتية فإن كنتم لا ترحمون الناس ولا تشفقون على الأمم فارحموا أنفسكم فإنكم هالكون إن بقيتم على هذه الحال لا محالة ﴿و لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ تهلكون أنتم وأذنابكم من الدويلات المربوطة بعجلتكم.

قال السفير الأمريكي: نحن كل سنة ندفع ملايين الدولارات لمساعدة اللاجئين الفلسطينيين واعاشتهم. فقال سماحته: ولا كرامة ولا جزيتم خيراً ارجعوهم إلى بلادهم وأوطانهم واخرجوا قرة عيونكم اليهود منها ولا تدفعوا دولاراً واحداً للاجئين ولتبق دولاراتكم لكم وفي بلادكم وكل ما تدفعونه مهما كان لا يساوي قرية واحدة من قرى فلسطين التي غصبتموها منهم فضلاً عن المدن والعواصم مثل حيفا ويافا وعكا وأمثالها. أيها الناس إن مسلمي فلسطين عرب كرام لا يقبلون الذل والموت عندهم خير من هذه الاعاشة.

ولما بلغ سماحة الإمام إلى هذه الصراحة في المحاورة ظهر التأثر على السفير الامريكي والانكسار وقال: لا لا ولا كل هذا يا شيخ ثم قام وانصرف - ولكن بعد أيام أرسل كتاباً بالانكليزية من مصر يستعطف به سماحة الإمام ويقول: إني معجب بتلك الصراحة التي ما رأيتها من أحد وسوف أبلغ ما تفضلتم به إلى المسؤولين عندنا.

سؤال عن الفرق بين اليهودية والصهيونية

بعد تقبيل أياديكم الشريفة إنني أمام مشكلة لم أستطع حلها ولذا أتقدم إلى سماحتكم بهذا السؤال راجياً من حضرتكم التفضل بالإجابة ولكم الشكر.

هل يوجد فرق بين الصهيونية واليهود. وإذا وجد فرق بينهما هل يشترك اليهود مع العرب في طرد الصهاينة في حين أنهم من عنصر ودين واحد. وإذا لم يوجد فرق بينهما فكيف تأسست في العراق عصبة يهودية لمكافحة الصهيونية وأبقاكم الله لنا ذخراً وفخراً.

حسين فهمي الخزرجي
طالب في ثانوية النجف

الجواب

اليهودية دين من الأديان الإلهية ورابطة بين الخالق والمخلوق بواسطة نبي من أولي العزم ذات أحكام وطقوس تمنع الظلم والعدوان، وتدعو إلى البر والإحسان.

أما الصهيونية فهي جمعية سياسية محضة تريد إنشاء دولة وتشكيل حكومة قومية غير مقيدة بعدل ولا قانون بل أساسها الظلم والعدوان، وإنتزاع الحق من أهله لا رابطة لها مع الله عز شأنه بوجه من الوجوه بل

قائمة على البطش والقوة فأين هذه من اليهودية الحقيقية نعم الصهيونية قد أتخذت من اليهودية عنواناً وديناً لها ولكنها خدعاً ومكراً فأنها غير ملزمة بأحكامها ولا سائرة على مناهجها.

(وعلى أي) فالفرق بين الفريقين واضح أما أن اليهود يشاركون العرب في طرد الصهاينة أو أنهم يساعدون الصهيونية بجامع اليهودية سراً وجهراً، فذاك أمر آخر لا حاجة إلى الإجابة عنه، وهو غني عن البيان يعرفه كل ذي وجدان، أما العرب من اليهود فيكون التنازع والتدافع فيهم لعاملين القومية تدفعهم إلى العرب والدينية تدفعهم إلى اليهود ولا ندري لأي العاملين تكون الغلبة أما عصبة مكافحة الصهيونية فتذكرت قول الشاعر العراقي:

هل عند معتدل القوام لعاشق عدل وهل عند الجميل جميل
ومعقرب الأصداغ ما للديغها راق وما لعليلها تعليل

وفي هذه الكفاية ومنه تعالى البدء وإليه النهاية.

١٠ ربيع ثاني ١٣٦٦ هـ
محمد الحسين

كلمة للفقيد في الحث
لأسترجاع الأرض المقدسة بكاملها

ما أصيب العرب والأمة الأسلامية بضربة أعمت عينها، وقصمت ظهرها، ومزقت شغاف قلبها، كضربة فلسطين، وأوجع وأفجع منها ذيولها ومخلفاتها، فقد كان اللازم بعد تلك الصدمة والمترقب أن الدول العربية وهي محيطة بإسرائيل من جميع أطرافها مصر والأردن ولبنان وسوريا والحجاز نعم كان المنتظر أن توالي هذه الدول شن الغارات كل يوم على إسرائيل وتثور عليها لأخذ ثأرها وإسترجاع ولو البعض من بلادها التي أخذت منها بالظلم والخداع.

ولكن ويا للأسف وماذا يجدي الأسف أنعكست القضية وصارت دولة اليهود هي تمعن بشن الغارة كل يوم على القرى العربية من الأردن وفلسطين وتخرق خط الحدود وتضرب مقررات الدول العظمى بل تدوسها تحت أقدامها، وتلك الدول الغاشمة واقفة وقفة المتفرج بأعينها وتضحك ملء أشداقها وتفرح ملء قلوبها، ولا يمر أسبوع إلا ونجد الصحف العربية في لبنان والأردن والعراق تنشر بالحرف الكبير (إعتداء يهودي) قتلوا مائة أو مائتين من العرب، نسفوا القرية الفلانية، أحرقوا القرية الأخرى قتلوا خمسين طفلاً وامرأة، أسقطوا عشرين جنيناً وهكذا دواليك من أول حدوث النكبة إلى اليوم.

أما العرب فيقابلون كل هذه المظالم التي لا يصبر عليها حتى

الحمار وفي المثل اليوم (اصبر من حمار) يقابلونها بالإحتجاج إلى هيئة الأمم، ويشتكون إليها وهي التي أوعزت إلى اليهود بذلك تريد إشغال العرب في الداخل والخارج حتى يأخذوا الغنيمة الباردة ويهتبلون الفرصة الشاردة ولكن العرب لما سلبت منهم فلسطين كان الله سلب منهم كل غيرة وكل خجل وكل حياء فلا يخجلون أن ينشروا في صحفهم كل أسبوع بل كل يوم، أعتدى اليهود وقتلوا من العرب كذا وكذا، ورفع العرب أحتجاجهم إلى مجلس الأمن أو هيئة الأمم الهدنة، نعم لا يخجلون من تكرار هذه اللهجة السخيفة بعد أن جربوا وعرفوا أن هيئة الأمم أي الدول الكبرى تضحك على ذقونهم وتسخر من ضعف عقولهم، ولماذا لا تقابلهم العرب بالمثل والبادىء أظلم والعرب أوسع بلاداً، وأعظم عتاداً وأقوى أجناداً، وقرآنهم يقول (فمن أعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما أعتدى عليكم).

اليهود يعملون ويهجمون والعرب يقولون ويحتجون، اليهود يقتلون ويحرقون والعرب يصيحون ويصعقون. نعم العرب لم يبقى عندهم من الأحاسيس غير القراطيس، ولا من الحقائق الإ ما تميله الأقلام على المهارق وصاروا كاليهود في أول الدهر ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباوءا بغضب من الله وألقى الله بأسهم بينهم.

هذه مصر ثار أبطالها تلك الثورة الجبارة ولكن ما أسرع ما وقع بأسهم بينهم وشغلوا أنفسهم بالمحاكمات والمخاصمات والحكم بالأعدام والأخذ بالأتهام والعدو على الأبواب كل يوم يشن الغارة على غزة وعلى الحدود ويوشك أن يغتنم هذه الفرصة ويغزوهم في عقر دارهم (وما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا) أفما كان الأحجى ترك هذه المماحكات والمحاكمات حتى يدفعوا العدو الخارجي ويأمنوا مكره وشره ثم يعودوا إلى تصفية الحساب بينهم.

(لا أدري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً) كان

الشرق يرزح وينوء تحت كابوسين أنكليزي وفرنسي ولكن جاءت الدنيا الجديدة بإستعمار جديد هو أدهى وأمر ولعل هذه الأنقلابات والاضطرابات في إيران ومصر وسوريا وفلسطين من صنايع تلك الاصابع التي لها في كل قطر صناعة ولكل أمة بضاعة ووقع الشرق كله في أحبولة الإستعمار المزدوج بل المثلث وهيهات أن يستريح الشرق بل العالم كله ما دام جند الجشع الطاغي في هذه الدول الجبارة التي يطعن شيطان المطامع منها كل عدل ورحمة ولكن هذا الطاعون المزدوج يطعن في أبدان تلك البلدان من وراء ستار رقيق أما في فلسطين فقد سلط الصهيونيين ومكنهم وأعانهم وضرب العرب ضربة سافرة مكشوفة بكل وقاحة وصلابة من غير مجادلة ولا مخاتلة، ولا يزال إلى يومنا هذا يمدها بالحديد والنار وملايين الدولار كل ذلك نكاية بالعرب وتقوية لعدوهم عليهم والدول العربية بأجمعها خاضعة مسخرة يلعب بها ويقلبها كيف يشاء يقدم ويؤخر ويضرب واحداً بالآخر يضرب فرعون مصر بهامان الذي هو من جنده ويقول لهامان أن لم تخضع لي أضربك بهامان آخر من قومك وهكذا الحال في إيران ولبنان وسوريا أما العراق (فلي النهي عن أقل إعتراض).

ولك الأمر فاقض ما أنت قاض فعليّ الجمال قد ولاكا

وعند اللزوم فالخطة تلك الخطة والمنهاج ذلك المنهاج نعم شجون وشؤون وعصايب ومصائب ولكن لا كمصيبة فلسطين فأنها أذابت الشحم وعرقت اللحم وكسرت العظم. ومن المبكيات المضحكات (وشر البلية ما يضحك) أن تهجم ليلاً عصابة مسلحة بالأسلحة الجهنمية من قنابل ومدافع أو نسافات على قرى وديعة آمنة لم تقارف ذنباً، ولم تحارب منهم أحداً فيضربونها بالمدافع وينسفون تلك القرى ويهلك جميع من فيها تحت الأنقاض من الرجال والأطفال والنساء ثم ترجع تلك العصابة سالمة آمنة لا رادع ولا مانع.

فهل حدثك التاريخ أو حدث في العوالم مثل هذه الجرائم فأين

العرب وأين الحكومات العربية وأين ميثاق الضمان الإجماعي وأين الجامعة العربية التي لم تكن إلا غلا وجامعة في أعناق العرب. أفما كانت الغيرة والحمية والشهامة العربية تقتضي أن تثور العرب تلك الليلة المشومة وتثور الدول العربية وشعوبها على بكرة أبيها على إسرائيل لأخذ الثأر وغسل العار فأما أن يبيدوهم ويسترجعوا بلادهم ويحفظوا كرامتهم أو يموتوا في سبيل الشرف والكرامة (والموت خير من بقاء العار) وقد قالوا (من أهين ولم يغضب لكرامته فهو حمار) ولكن كأن العرب لا يجدون لأنفسهم كرامة حتى يحافظوا عليها أو يموتوا دونها، وأنكى من ذلك وأفجع وأوجع أنهم عادوا إلى سخافتهم الأولى وصقاعتهم التي أصبحت (كليشه) فقدموا أيضاً الأحتجاج إلى بريطانيا وأمريكا ثم أنظر ماذا صنعت بريطانيا الأم الحنون لليهود وقدمت مذكرة إلى الوزارة العراقية إحتجاجاً على إسرائيل تقول فيها بنصها أن حكومة بريطانيا تتوقع من حكومة إسرائيل أن تسوق المسؤولين عن هذا الاعتداء إلى العدل. انظر صيغة هذه المذكرة واضحك وابك ما شئت انظر لفظة (تتوقع) حكومة بريطانيا أنظر إلى هذه المهازل والمخازي المكشوفة وقل هل عند العرب شعور أو هل عند هذه الدول الغاشمة من ذوق على الأقل ومجاملة فضلاً عن الرحمة أو العدالة واعجب إلى صقاعة ورقاعة هذه الوزارات أو الوزارات التي تقدم إليها السفارة هذه المذكرة ويقنعون بها ولا يضربون بها وجوه الظالمين، ولو فعلوا ذلك وابدوا لليهود ومن مكن اليهود من بلاد المسلمين ومن أرواحهم وأموالهم شيئاً من الصلابة والتنمر لكان لهم العار الثقيل عند الدول الغربية ولو جمعوا كلمتهم ووحدوا قوتهم ونظموا عتادهم وعدتهم وهجموا على اليهود في فلسطين لوجدوا من الشعوب العربية ارتياحاً عظيماً ولوجب على كل عربي بل وكل مسلم أن يمدها بكل ما في وسعه من مال ورجال، وعدة وعتاد حتى يسترجعوا حقهم ويميتوا هذه الجرثومة الخبيثة التي هي مادة فساد وافساد في جسم البشر كله فإن الأعمال الفظيعة

التي ارتكبوها في دير ياسين وغيرها وهجومهم على القرى الثلاث في الأردن ليلاً بالمدافع التي تنسف الجبال والحصون فكيف بتلك القرى الخاوية والتي هلك تحت انقاضها مئآت الأطفال والنساء فضلاً عن الرجال نعم أن فظائع أعمال اليهود خرقوا بها جميع مقررات الدول، فالواجب على جميع الدول ابادتهم لا خصوص الدول العربية وإن كان عليهم بالدرجة الأولى ولا شك أنهم لو صدقوا أو اخلصوا وتناصروا نصرهم الله وسلطهم على عدوهم لكن بشرط أن لا ينخدعوا لحلفائهم ولا ينصاعوا إلى حيلهم ولا يضربوهم بمثل الهدنة التي قصمت ظهورهم (ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين).

ولله العزة ولرسوله وللؤمنين

طلب الإسلام أن يكون المسلم صلب العود، رابط الجأش رفيع الهمة، عزيز النفس، طيب الأعراق، دمث الأخلاق، شديد العناد لأهل السوء والفساد سلسل القياد لاخوانه المسلمين يغار لهم وتهمه أمورهم، جعلهم إخوة في الدين، ووحد كلمتهم بكلمة التوحيد يشد بعضهم بعضاً كالبنيان المرصوص ويواسي كل واحد منهم الآخر فلا يشبع وأخوه جائع ولا يأمن وأخوه خائف ولا يعز وأخوه ذليل.

والكلمة الجامعة التي يريدها الإسلام لمن يتدين به هي أن يجعل أخاه المسلم نفسه إلا أنه غيره وجعل علامة الإسلام وشارته أن تهتم بأمور المسلمين فقال - من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس من الإسلام في شيء. وجعلهم أشداء على الكفار رحماء بينهم وجعل عزتهم مع عزة الله ورسوله فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى كثير من أمثال هذا الذي لو أردت أن أحصيه وافيض فيه تجاوزت القصد وفات الغرض، ولكن الذي أريد أن أقوله - يا هل ترى تجد شيئاً من هذه الإشارات أو العلامات في واحد من هذا الناس الذين يزعمون أنهم مسلمون - والإسلام يبرأ إلى الله منهم الإسلام أرادهم أعزاء (وقد صاروا أذل من قوم الأمة) وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله. انعكست فيهم الآية ارادهم أشداء على الكفار رحماء بينهم فصاروا أشداء فيما بينهم مستعبدين للكفار أرادهم أن لا يكونوا لليهود والنصارى أولياء. ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا

﴿تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ نعم لم يتخذوهم أولياء ولكن اتخذوهم أسياد وقادة وسناداً يعملون لمصالحهم ويتهالكون على خدماتهم. أراد (أن يهتم كل مسلم بأمور المسلمين) فصار يهتم بتفريق كلمة المسلمين وتمزيقهم وصب البلاء عليهم.

هجم اليهود بالنار والحديد والقنابل على العرب والمسلمين في قرية (قبيه) العزلاء فنسفوا البيوت وردموها على من فيها من النساء والأطفال والرجال وليس بينهم وبين الجيش الأردني الذي يقال أنه عربي ومسلم، ليس بينه وبين موقع الحادثة سوى بضعة أمتار يسمعون الصراخ والاستغاثة بآذانهم ويرون النار وتساقط الدور بأعينهم فلا يحرك واحد من الجيش ساكناً «ولو كانت القلوب من الصخر الأصم، لذابت لذلك الظلم الفظيع».

نعم بعد انتهاء الحادثة ورجوع اليهود إلى أماكنهم سالمين غانمين جاء الجيش الأردني كي يحصي عدد القتلى هل هم مائتان أو أكثر وكيف يحركون ساكناً ويسعدون صارخاً وقائد الجيش الأردني الانكليزي (كلوب باشا).

انشاؤا في الأردن جيشاً انكليزياً من العرب ليضرب العرب وهكذا كان وهكذا فعل ويفعل. كل يوم تقع مثل هذه البلية العاتية والضربة القاسية من اليهود على القرى العربية منذ خمس سنوات إلى يومنا هذا. فهل سمعت طيلة هذه المدة مع هذه الهجمات الفظيعة من اليهود على قرى الأردن هل سمعت أن العرب أو الدول العربية المحيطة بإسرائيل من كل جهاتها هل سمعت أنهم قتلوا كلباً يهودياً أو هرة يهودية فضلاً عن إنسان أو صورة إنسان. نعم السلاح الوحيد عندهم والملجأ للأردن وغير الأردن الاحتجاج إلى الدول العربية الكبرى والشكوى واقصى ما عند هؤلاء الدول الاستنكار الفارغ والعتاب الفاتر يشكي عاهل الأردن إلى مثيله في العراق (شكوى الجريح إلى جريح مثله) وتشتكي الدول العربية المنهوكة إلى مجلس الأمن والدول الكبرى (شكوى الجريح إلى العقبان

والرخم). أتدري ما يكون من شكوى الجريح إلى العقبان والنسور وأمثالها من سباع الطير إنها تنزل إلى الجريح فتقطع لحمه وتمص دمه وتهشم عظمه وتأكله في ساعة طعاماً سائغاً. وهكذا الدول الاستعمارية تصنع معنا معاشر المسلمين. إذا اشتكينا إليهم يضربون بعضنا ببعض ويلقون بأسنا بيننا ثم يسلطون اليهود علينا.

أنظر إلى ما يجري في مصر من الانقلابات والاضطرابات واراقة الدماء واعطف نظرك ثانياً إلى سوريا وشكليات الشيشكلي ومشكلاته. والنفوس التي زهقت من تلك الحوادث وهكذا طهران ولبنان والعراق. الاستعمار يبعث فيها بيد فيشغلها بنفسها وفي داخلها، ويدفع اليهود عليها باليد الأخرى ويقول - ارجعي الكرة على العرب واغتنمي الفرصة ما دامت مشغولة بنفسها.

وما ندري أي المصيبتين أوجع سحق العرب بعضهم لبعض وتضاربهم فيما بينهم وغفلتهم أو تغافلهم، عما يكيد لهم العدو والذي ألقى بأسهم بينهم، أم تهالك الدول الغربية على اهلاك العرب وابادتهم، وضعة العرب والضعة التي خضعوا لها في تحملهم الذل والضيم وعدم الانتصار من ظالمهم تذكرني بقول الشاعر الكريم (نصيب):

ولولا أن يقال صباً نصيب ... لقلت بنفسي النشأ الصغار
بنفسي كل مهضوم حشاها ... إذا ظلمت فليس لها انتصار

وبحق أن نقول لتلك الدول العاتية الظالمة التي تتطلب المثل العليا والقيم الروحية بحق أن نقول لهم...

ضجت بظلمكم الشعوب جميعها ... ورحى الفساد ادارها الدولار
تلوي به عصب البلاد وتشتري ... ذمم الرجال وتخمد الأفكار

ما أدري أي المصيبتين أنكى وأنكد على الشعوب العربية مصيبتها بحكوماتها التي تساوم عليها تريد أن تبيعها بيع الرقيق وتسوقها إلى

الجزارين سوق الأغنام للذبح أم مصيبتها من الدول الغربية التي أصبحت شراً على العالم كله. ونفثت على العرب خاصة اسوأ سمومها وانكى مكايدها. ولكني انتظر بطشة الله الكبرى.

بهذه الدول العاتية الطاغية. وما أدري أن حلمه تعالى وأناته تتسع لأكثر من هذا الامهال وأن يترك هذه الأمم المستضعفة فريسة لهذه السباع الضواري من البشر.

أساليب العمل في الإسلام لرفع الظلم ودفع الشر ومقاومة الشعوب للاستبداد والفساد

الوسائل المتبعة للاصلاح الاجتماعي وتحقيق العدل وتمزيق الظلم ومقاومة الشر والفساد، تكاد تنحصر في ثلاثة أنواع:

١ - وسائل الدعوة والإرشاد بالخطب والمقالات والمؤلفات والنشرات وهذه هي الخطة الشريفة التي أشار إليها الحق جل شأنه بقوله: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾. وقوله عز شأنه: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾. وهذه هي الطريقة التي استعملها الإسلام في أول البعثة، وهي خطتنا التي ما زلنا عليها منذ تحملنا المسؤولية ونهضنا باعباء الاصلاح، والمرجعية الدينية والوظائف الروحية منذ خمسين سنة لا ندعو إلى ثورة ولا نرضى باضراب واضطرابات، وننشد السكنة والسلام في كل مقام.

٢ - وسائل المقاومة السلمية والسلبية، كالمظاهرات والاضرابات والمقاطعة الاقتصادية وعدم التعاون مع الظالمين وعدم الاشتراك في أعمالهم وحكومتهم وأصحاب هذه الطريقة لا يبيحون اتخاذ طريق الحرب والقتل والعنف وهي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ ﴿ و لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ - وفي القرآن الكريم كثير

من الآيات التي تشير إلى هذه الطريقة وأشهر من دعا إلى هذه الطريقة وأكد عليها النبي الهندي بوذا والمسيح عليه السلام والأديب الروسي تولستوي والزعيم الهندي الروحي (غاندي).

٣ ـ الحرب والثورة والقتال.

والإسلام يتدرج في هذه الأساليب الثلاثة:

الأولى: الموعظة الحسنة والدعوة السلمية فإن لم تنجح في دفع الظالمين ودرء فسادهم واستبدادهم.

فالثانية: المقاطعة السلمية أو السلبية وعدم التعاون والمشاركة عهم فإن لم تجد وتنفع.

فالثالثة: الثورة المسلحة. فإن الله لا يرضى بالظلم أبداً والراضي بل والساكت شريك الظالم.

الإسلام عقيدة، وقد غلط وركب الشطط من قال أن الإسلام نشر دعوته بالسيف والقتال، فإن الإسلام إيمان وعقيدة والعقيدة لا تحصل بالجبر والإكراه وإنما تخضع للحجة والبرهان والقرآن المجيد ينادي بذلك في عدة آيات منها: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾.

والإسلام إنما استعمل السيف وشهر السلاح على الظالمين الذين لم يقتنعوا بالآيات والبراهين. استعمل القوة في سبيل من وقف حجر عثرة في سبيل الدعوة إلى الحق. اجهز السلاح لدفع شر المعاندين لا إلى ادخالهم في حظيرة الإسلام.

يقول جل شأنه: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ فالقتال إنما هو لدفع الفتنة لا لاعتناق الدين والعقيدة.

فالإسلام لا يقاتل عبطة واختياراً، وإنما يحرجه الأعداء فيلتجأ إليه اضطراراً. ولا يأخذ منه إلا بالوسائل الشريفة فيُحرم في الحرب والسلم،

التخريب والإحراق والسم، وقطع الماء من الأعداء، كما يُحِّرم قتل النساء والأطفال وقتل الأسرى ويوصي بالرفق والإحسان إليهم مهما كانوا من العداء والبغضاء للمسلمين ويحرم الاغتيال في الحرب والسلم ويحرم قتل الشيوخ والعجزة ومن لم يبدأ بالحرب. ويُحِّرم الهجوم على العدو ليلاً (وانبذ إليهم على سواء) ويُحِّرم القتل على الظُنَّة والتهمة والعقاب قبل ارتكاب الجريمة. إلى أمثال ذلك من الأعمال التي يأباها الشرف والمروءة والتي تنبعث من الخسة والقسوة والدناءة والوحشية كل تلك الأعمال التي أبى شرف الإسلام ارتكاب شيء منها مع الأعداء في كل ما كان له من المعارك والحروب، قد ارتكبتها بافظع صورها وأهول أنواعها الدول المتمدنة في هذا العصر الذي يسمونه عصر النور نعم اباح عصر النور قتل النساء والأطفال والشيوخ والمرضى والتبيت ليلاً والهجوم ليلاً بالسلاح والقنابل على العزل والمدنيين الآمنين واباح القتل بالجملة ألم يرسل الألمان في الحرب العالمية الثانية القنابل الصاروخية إلى لندن فهدمت المباني وقتلت النساء والأطفال والسكان الآمنين؟ ألم يقتل الألمان ألوف الأسرى؟ ألم يرسل الحلفاء في الحرب الماضية ألوف الطائرات إلى ألمانيا لتخريب مدنها؟ ألم يرم الأمريكان القنابل الذرية على المدن اليابانية؟.

وبعد اختراع وسائل الدمار الحديثة كالصواريخ والقنابل الذرية والهيدروجينية لا يعلم إلا الله ماذا يحل بالأرض من عذاب وخراب ومآسي وآلام إذا حدثت حرب عالمية ثالثة ولجأت الدول المتحاربة إلى استعمال تلك الوسائل ارشد الله الإنسان إلى طريق الصواب وهداه الصراط المستقيم.

كيف تحل مشكلة فلسطين

إن اختلاف كلمة المسلمين في القرن السادس والسابع للهجرة سبب حدوث الحروب الصليبية وغلبة المغول والتتر على الممالك الإسلامية وفي القرن الثالث عشر والرابع عشر للهجرة أدى اختلاف كلمة المسلمين أيضاً إلى ابتلائهم بالاستعمار الأوروبي. فاستولى الانكليز على مصر والمحميات التسع وإمارات الخليج والعراق والحجاز واستولت فرنسا على الجزائر وتونس ومراكش ولبنان وسوريا.

واختلاف كلمة الدول العربية بعد الحرب العالمين الثانية هو الذي أدى إلى فاجعة فلسطين وانشاء دولة إسرائيل.

والعالم العربي الآن يعرف جيداً أن لإسرائيل أهدافاً اعتدائية ويعرف أن إسرائيل كالنار الملتهبة تستمر في حرق ما يجاورها أو تخمد ويقضى عليها وكالوباء المكروبي الذي يظل منتشراً أو يقتل ويفنى.

إن قضية فلسطين في الوقت الحاضر بعد أن اعترفت بها دول كثيرة أصبحت معقدة جداً وحلها يحتاج إلى كثير من الحكمة والحذر والصبر والشجاعة ولمعالجتها ينبغي أن نأخذ بنظر الاعتبار أموراً كثيرة أشير إلى بعضها.

١ - يجب الابتعاد عن الأقوال الفارغة والوعيد والتهديد والحذر من التظاهر بالدعوة إلى الانتقام والتآثر، والجولة الثانية تلك الدعوة التي

تدسها وتنشرها الدول الاستعمارية علناً عن سوء قصد كي تلهي العرب بالخيال والأماني عن الواقع المر، وتحول نقمة العرب منهم إلى إسرائيل.

وينبغي الحذر من دسائس الانكليز والأمريكان ودحض دعايتهم التي تظهر العرب بمظهر المعتدي والمنتقم والحال أن العرب يطالبون بحقهم وهم الموتورون. ولو ردوا إليهم بلادهم لم يكن لهم مع اليهود ولا غيرهم حقداً أو سوء وقد عاش اليهود مع العرب بسلام حقبة طويلة من الزمن.

٢ - إن أصل بلاءنا بإسرائيل كما ذكرنا من انكلترا التي كونتها وأمريكا التي شجعت إسرائيل وعاونتها فخلاصنا من إسرائيل مرتبط ارتباطاً وثيقاً بخلاصنا من الاستعمار. فإن استقلت الدول العربية استقلالاً كاملاً وتكونت فيها حكومات نزيهة مخلصة تتعاون وتتحد وتتسلح للقضاء على الخطر تهيأ الخلاص للعرب من إسرائيل، وماتت من نفسها بلا عناء بل تموت بدون حرب وتستسلم في الحال بلا قتال ولا جدال لمطالب العرب ويمكن حينئذٍ ضم القسم اليهودي إلى الاتحاد العربي الواسع ومعاملتهم كمواطنين أو اعتبارهم من أهل الذمة حسب قانون الإسلام.

٣ - إن اختلاف كلمة دول العرب هو الذي أدى إلى الكارثة ولا يتمكن العرب من ايقاف نمو إسرائيل أو القضاء عليها إلا بتضامنهم واتحادهم، وإلا فإن البلاء إذا توسع هذه المرة فإنه سوف يعم الجميع بل يؤدي إلى فناء العرب وتشريدهم في الآفاق وينعكس الأمر فيصبح اليهود مجتمعين آمنين في بلدان العرب. والعرب مشردين عن بلدانهم وأوطانهم. ولا ينفع حينئذٍ الندم ولا يمكن العلاج فإن مثقالاً من الوقاية خير من قنطار علاج وسوف نكون نحن الأسلاف لعنة الأخلاف وسبة الأجيال وإذا بقينا على خدرنا وكسلنا ونومنا العميق ستصلنا النار في القريب العاجل - بالله عليكم أيها العرب ارحموا أنفسكم من العذاب الذي تعانونه الآن ومن البلاء الذي يدبره لكم الأعداء ووحدوا صفوفكم وتضامنوا، وتعانقوا ولا تتهاونوا تنجحوا وتفلحوا.

خطبة

الاتحاد والاقتصاد

الخطاب الجليل الذي تفضل به سماحة المصلح العظيم، أمام المؤتمر الإسلامي، العلم، حجة الإسلام، الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء، والقاه في المسجد الأعظم بالكوفة في ٦ شوال ١٣٥٠ هجرية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴾.

أيها المؤمنون!

لو أردت أن اتكلم بكل ما اعلم، وبما أوتيت من براعة البيان وقوة اللسان، وبما يلائم الطبقة الراقية منكم من ذوي الفضل والمعارف، كنت أوجبت حرمان الآخرين من الحاضرين. فرعاية لحق الجميع، لا مندوحة لي من أن اتكلم باللسان الذي ينتفع به الجميع ولا تختص به طبقة دون طبقة، وقد قيل: «إن الرجل إذا أراد أن يتناول شيئاً من الأرض لا بد له من أن يتطأطأ وينحنى»، إذاً فلا مؤاخذة لو تكلمت باللسان العادي، بعد أن كان جل الغرض هو الافهام، لا أظهار الصناعة والبراعة وتزويق الكلام.

قال - سبحانه وتعالى -: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

هذه الكرة الأرضية التي نعيش على ظهرها احياء، ونرمس في بطنها أمواتاً، وكلما فيها وما عليها وما يحيط بها وما يخرج منها من الكائنات من الأمهات الأربع: الماء والتراب والنار والهواء، والمواليد الثلاث: الجماد والحيوان والنبات... كل هذه الحقائق، بجميع أصنافها وأنواعها، ومختلف أشخاصها، كلها قد تكونت من أجزاء متغايرة وعناصر مختلفة.. انضم بعضها إلى بعض، وامتزج بعضها ببعض، على

نسبة مخصوصة ووضع خاص، حتى صارت حقيقة نوعية، لها اثارها الخاصة وخواصها المتعينة.. هذا شجر، وهذا حجر، وهذا إنسان...

ولكل واحد من تلك الموجودات العينية فساد وصلاح، ونقص وكمال. وصلاح كل موجود هو عبارة عن ترتيب الاثر المقصود منه، وحصول الغاية التي خلق من أجلها، والثمرة المتوخاة فيه.. وفساده عبارة عن تخلف ذلك الأثر، وعدم حصول تلك الغاية منه. فصلاح الزرع - مثلاً - أن يثمر الثمر الجيد والحب الذي يطلب من مثله، وصلاح المسك بأن تفوح منه الرائحة الطيبة وإذا لم تكن له تلك الرائحة فهو فاسد.

وإذا تعمقنا في البحث، ودققنا النظر في الأسباب والعلل، لا نجد علة الفساد وسبب الصلاح في تلك الكائنات سوى ما يرجع إلى أمر واحد.. فصلاح الشيء وترتب أثره المطلوب منه إنما ينشأ من استجماع أجزائه وانضمام بعضها إلى بعض وارتباطها على نسبة خاصة ووضع معين، ارتباطاً يجعل تلك الأجزاء المتغايرة شيئاً واحداً ذات أثر واحد، فإذا زادت تلك الأجزاء أو نقصت، أو اختل وضعها الخاص وتركيبها المعين، فانحل ذلك التركيب وتفككت تلك الأجزاء، فهناك يأتي الفساد وتتلاشى الحقيقة، ويفوت الاثر المقصود منها.

فمرجع الصلاح - في الحقيقة - في كل الكائنات إلى الوحدة والانضمام، ومرجع الفساد إلى التفرق والانقسام.

ولو نظرنا بالنظرة الأولى إلى الأشياء التي يعرضها الفساد، مثل الفاكهة واللحم ونظائرها لا نجد فسادها إلا من جهة انحلالها، ورخاوتها، وتفكك أجزائها.. وما كان صلاحها إلا من جهة تماسك أجزائها وشدة ارتباطها وصلابتها.

وهكذا يتمشى القول في هذا الهيكل الإنساني بالنظر إلى كل فرد منه، فإن صحته وصلاحه ليس إلا عبارة عن استجماع أجزائه المقومة له

على تركيب خاص، فلو زادت أو نقصت أو اختل ذلك التركيب والوضع وتفككت الحجيرات التي تكون منها لحمه ودمه، جاء الفساد، وعرض المرض، وتسربت إلى جسده العلة... واستجماعه لاجزائه بالمرتبة المعينة له تستوجب وحدة حقيقية، بوحدة الحس والادراك والتعقل، وهذه الوحدة تستوجب تبادل المنفعة بين الأعضاء.

ومثل ما قلناه في الفرد يأتي القول في المجموع، وأعني به الأمة التي تتألف من الأفراد. وكل فرد فإنما هو جزء من أجزائها، فان صلاحها بالضرورة إنما هو بانضمام أفرادها، وشدة ارتباط بعضها ببعض ارتباطاً يستوجب وحدتها الحقيقة، بحيث يعود حال المجموع حال الفرد في حد نفسه، له روح واحدة وحس واحد، حتى لو ضربت العين أو الأنف أو اليد أحست كل الأعضاء بالالم، وإذا ابتهجت العين بمنظر حسن ابتهج البدن كله، وهكذا إذا انتعش الأنف برائحة طيبة انتعش كل البدن.. وكذلك المنافع متبادلة بين الأعضاء، فاليد تخدم العين وتحامي عنها، وكذلك العين تخدم اليد كما تخدم سائر الأعضاء، فإذا تبادلت المنافع وصار كل واحد من الأعضاء خادماً لسائرها، فالكل قائم بخدمة الكل، فهناك البدن الصحيح السوي، الصالح القوي، الذي لا يتسرب إليه شيء من الفساد.

اما إذا فسد بعض الأعضاء انقطعت علاقته من الباقي وزال الاثر المقصود منه من منفعة البدن وخدمته، وربما سرى فساده إلى غيره، وكان الواجب قطعه.

هذا حال الإنسان فرداً، وعلى هذا القياس حاله مجتمعاً.

فإذا ارتبطت أفراد الأمة بعضها ببعض ارتباطاً يوجب لها الوحدة الحقيقية، تعيش بروح واحدة، ووترمي إلى هدف واحد، وتكون بمثابة الجسد الواحد الصالح الصحيح الذي يسعى كل فرد من المجموع لخدمة

المجموع، وإذا تألم فرد منه تألمت جميع أفراده كما قال - صلوات الله عليه -: «المؤمن من المؤمن كالعضو من الجسد، إذا تألم عضو أصيب سائر الجسد بالسهر والحمى»... هناك تصير الأمة بافرادها كأنها بنيان مرصوص، فتتضاعف القوة، وتتوحد القوى، ولا يتسرب إليها شيء من الفساد، وتدرأ الاخطار والكوارث عنها بفضل قوتها المجتمعة، وصارت أمة صحيحة حية، صالحة قوية، لها مجدها وكيانها، وعزها وشأنها.

اما إذا كان كل فرد قد انقطعت علاقته من المجموع، وزال ذلك الربط وتمزقت تلك الوحدة، وصار كل فرد - فضلاً عن أنه يشتغل لنفسه ويعمل بفرده - يسعى لهدم أخيه والاضرار به وخرابه، فقد خرب بيت الجميع، وانهدم صرح الأمة من أساسه وهو على رأسه.. ففسدت الأمة بأجمعها، وزال عنها كل عز وملكة، ووقعت في اسوأ الهلكة، وأصبحت فريسة للذئاب وطعمة للكلاب... كما أصبحتم تشاهدون كل هذا بأعينكم.

ثم إن الفساد الذي هو الانحلال والتفكيك إنما ينشأ مما كسبت أيدي الناس من عدوان بعضهم على بعض، وحب الغلبة والاستيثار الناشيء كله من الجهل بصالح الفرد وصالح المجموع وإن صالح المجموع هو صالح الفرد.

الفساد هو أن يصبح كل إنسان لا يهمه إلا أمر نفسه، ولا يبالي بما أصاب أخاه أو صديقه أو جاره أو رحمه، ولا يواسيه في سراء ولا ضراء.. وبهذا ومثله يظهر مغزى قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ من تقاطع الأمة الواحدة وتفككها وبغض بعضها لبعض.. فعندها ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ﴾ فترتفع البركات، وتنقطع الخيرات، وينزل البلاء، ويحجب الدعاء، ويحبس غيث السماء. وفي الحديث: «إذا رضي الله عن قوم انزل عليهم المطر في وقته، وجعل المال في سمحائهم، واستعمل عليهم خيارهم، وإذا سخط عليهم حبس المطر عنهم، أو أنزله

في غير وقته، وجعل المال في بخلائهم، واستعمل عليهم شرارهم» الحديث.

إذاً فصلاح الأمة حاله حال سائر الموجودات، والكائنات الحيوية، وكل ما على الكرة الأرضية، إذا اجتمعت تكون صالحة في المجتمع، ولا يكون صلاحها إلا بتضامنها وانضمامها، بحيث تعيش بروح واحدة، تتبادل منافعها كتبادل أعضاء الجسد الواحد والكل يخدم الكل.

قال أمير المؤمنين - سلام الله عليه -: «ألا لا يعدلن أحدكم عن القرابة أو العشيرة يرى بها الخصاصة أن يسدها بالذي لا يزيده إن امسكه ولا ينقصه إن أهلكه، ومن يقبض يده عن عشيرته فإنما يقبض منه عنهم يداً واحدة، وتقبض منهم عنه أيد كثيرة».

إذا مددت يدك إلى قومك فقد مدت إليك منهم ألف يد، وإذا قبضتها قبضت عنك منهم ألف يد. فكل واحد يشتغل بيد واحدة خير لنفسه أو يشتغل بألف يد؟.. ولعل إلى هذا أيضاً الإشارة في الحديث المشهور «يد الله مع الجماعة».

إذا اتفقت الأمة واحب بعضها بعضاً، كان كل واحد منها تشتغل له الأيدي الكثيرة. وإذا تقاطعت فكل واحد منها تشتغل في تقطيعه الأيدي الكثيرة... وهناك الدمار، والبوار، وخراب الديار.

العرب كانت من اقدم الأمم نجاراً، واعظمها آثاراً، وأشدها بأساً، وأبعدها في التاريخ ذكراً، واسماها فخراً. وكانت لهم في الجاهلية مزايا عالية، وأخلاق سامية، قلما يحصل مثلها في أمة من الأمم... الوفاء، والآباء، وحماية الذمار، وحفظ الجار، واكرام الضيف، وصدق الحديث، والقناعة، والبساطة.. إلى كثير من أمثال ذلك. وأفضل ما امتازوا به من الصفات الحسنة صفتان هما من أمهات مكارم الأخلاق:

«الجود والشجاعة».. وإن شئت فقل: الاستهانة بالعزيزين: «النفس والمال».

ولكن.. هل نفعها شيء من تلك المزايا الفاضلة والسجايا الكاملة؟.. كلا! ثم كلا!

بل كان بأسها بينها، وقوتها وبالاً عليها. فكان أكبر شاغل لها الحروب المستمرة بينها، فكانت وقائعها الشهيرة، وحروبها الكبيرة لا تحصى. وقد بلغ توالي الحروب فيها، وتفاخرها بالسبي والسلب والغارة، وإراقة الدماء بغير حق وعلى غير قاعدة وقانون، إلى فوق ما يتصوره العقل، وما يقشعر له الوجدان من الجهل والهمجية في وأد البنات وقتل الأولاد ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ وعبادة الأوثان، وتأليه الأحجار التي يصنعونها بأيديهم ويعبدونها... فهل كانت الشجاعة والكرم نفعتهم شيئاً، أو جمعت لهم شملاً، أو وجدت لهم كلمة؟.. كلا!.. بل كانوا بحيث يقتل الأخ أخاه، والولد أباه، والعشيرة الواحدة بينها حروب كثيرة.

وما يزالوا يتخبطون في سنادس الظلم والظلمات، وقتل الأولاد والعشيرة.. فكانت أمة فاسدة، وشعباً مبعثراً، وقوة متفرقة.. انقلبت الحسنات منهم سيئات، والملكات هلكات، والفضائل رذائل.. إلى أن لطفت بهم العناية الآلهية، ونظرتهم عين الرحمة.. فابتعثت إليهم ذلك المصلح الآلهي، والطبيب الرباني، والناصح الشفيق، فصدع فيهم بدعوة الحق، فوحد كلمتهم، وجمع قوتهم، وطهرهم من عبادة الأصنام ورجس الأوثان، وغسل عنهم درن الاحقاد والاضغان، حتى صح يهم قول تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾.

نعم! صدع فيهم بدعوة الحق، وجاهد وتحمل الأذى في سبيل

اصلاح الأمة العربية، حتى وحدت وتوحدت، وحمدت ربها وتوحدت فيما بينها.. ونفخ فيها من الحياة روحاً جديدة، فاصبحوا جسداً واحداً بروح واحدة، يرمون إلى هدف واحد.. إذا أصيب فرد واحد باذى تألم له جميع ذلك الجسد، وهو مجموع الأمة.

فما كان بأيسر من أن ملكوا العالم بأجمعه بتلك الروح الطيبة التي تحققت بينهم، فجاؤوا بمدهشات العقول... حروبهم التي كانوا يتحاربون فيها بينهم جعلوها على الأعداء، فكان الواحد يقابل الألف!

«غزوة بدر» كان المسلمون ٣١٣ رجلاً في مقابل ما يزيد على الألف من جبابرة قريش، مع ما كانوا عليه من القوة والسلاح وهؤلاء عندهم سبعون بعيراً وفرسان ومع ذلك في يوم واحد، في موقف واحد، كسروهم تلك الكسرة الشنيعة... قتلوا سبعين، واسروا سبعين.. والإسلام يومئذٍ ابن سنتين.. ثم أخذوا بهذه الوتيرة وبهذه القوة حتى بلغوا ما بلغوا.

حرب «اليرموك» كان المسلمون ٣٠٠٠٠ وأعداؤهم من رومانيا ومن الشام ألف ألف من المشركين، ومعهم ملوك الأفرنج.. فكان كل واحد من المسلمين يقابل ثلاثة آلاف من المشركين! حتى غلبوهم في سنة ١٦ هجرية.

وفي عين تلك السنة يحاربون من طرف الشام القياصرة، ومن طرف العراق في القادسية يحاربون الأكاسرة...

هكذا كانت قوة الإسلام، لأنهم أصبحوا في روح واحدة، ترمي لغرض واحد، ولكن لم تبق هذه الروح على تلك الحالة، حتى أصبحت تضعف وتتضاءل، وتأتي عليها العوامل المفرقة، والسموم القتالة.. إلى أن أصبح المسلمون على هذا الحال الذي تراهم عليه.

الإسلام هو الذي هذب تلك الأخلاق، وجعل تلك الروح صخرة إيمان ويقين.

قالت طواغيت قريش لرسول الله ﷺ في أول الدعوة: كيف نتبعك واتباعك كلهم عبيدنا - مثل بلال وصهيب وعمار - ونحن ملوك العرب جمرات قريش؟ فقال لهم: «اتفاخروننني بآبائكم أحجار جهنم؟! والله ليكثرن بعد القلة، وليعزن بعد الذلة، وسيفتحون ممالك كسرى وقيصر، ويصير كل واحد منهم صاحب رأي، فيقال: هذا رأي فلان وهذا رأي فلان» الحديث.

نعم! وما مضت على ذلك بضع سنوات حتى ملكوا ممالك كسرى وقيصر، وقذفت لهم خزائن الدنيا بكل ما في أحشائها.

الصلاح هو الذي يرفع الأمة إلى أوج المجد، والفساد هو الذي يهبط بها إلى حضيض الهوان.

الأمة الفاسدة المبعثرة قواها لا محالة تكون طعمة للكلاب وفريسة للذئاب. الأمة التي لا تحفظ كيانها، ولا تشيد بنيانها، ولا تعيش عيش الصلاح، لا بد وأن تصير طعمة للغير. والقوى بالضرورة يأكل الضعيف، ولكن أنى لنا بالصلاح، وأين المصلحون؟؟

فسدت الأخلاق فساداً يعجز عنه نطس الأطباء، وعادت الأمة العربية إلى جاهليتها الأولى يوم كان يقتل بعضها بعضاً.. القلوب مشحونة بالاحقاد والاضغان والدسائس... انقلبت المسألة رأساً على عقب، وأصبح كل منا يريد هدم الآخر ويسعى في هلاكه.

فسدت الأخلاق وساءت النيات، فحقت علينا «كلمة العذاب»، واذاقنا الله وبال بعض ما عملنا لا وبال كل أعمالنا، فإن ذلك موكول إلى يوم آخر ودار أخرى.. اذاقنا وبال بعض أعمالنا لعلنا نرجع إليه ونستدرك أمرنا ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

ولما كانت الأمة العربية صالحة صحيحة، مجموعة كلمتها، متحدة

قوتها، حق لها وعد ربها حيث قال: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾.

نعم! ورثوا الأرض وقبضوا على قرني الشمس من مشرقها إلى مغربها.. من الصين إلى المحيط الاطلنيق.. جيوشهم في وقت واحد مع «العلاء الحضرمي» في الشرق، ومع «طارق بن زياد» في الغرب، حتى فتحوا الأندلس، وأصبحوا إما ملوكاً على الملوك والممالك، أو يأخذون الجزية والاتاوة منهم... ولما دب الفساد فيهم، غلبت عليهم الأمم، وأصبحوا نهزة كل طامع ونهسة كل ماضغ. ويستحيل أن نعيش ونحيا كأمة من الأمم ونحن على هذا الحال التي نحن فيها، والأخلاق الفاسدة التي تخلقنا بها. أصبحنا على كثرة عددنا مملوكين ومحكومين، اذلاء مقهورين.

وادهى من ذلك كله: أننا لا نحس بما نحن فيه.. تخدرت أعصابنا وكأنما ضرب كل واحد منا بعشر أبر من «المورفين»، فصرنا لا نحس بالالم فضلاً من أن نأخذ التدبير لعلاجه.

نعم! صرنا جميعاً على حد ما وصفه - سلام الله عليه -: «اضرب بطرفك حيث شئت من الأرض، هل ترى إلا فقيراً يكابد فقراً! أو غنياً بدل نعمة الله كفراً! أو بخيلاً اتخذ البخل بحق الله وفراً! أو متمرداً كأن باذنه عن سمع المواعظ وقراً!».. نعم سنة الله في الكون التي لا تتغير ولا تتبدل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾.

كل طبقة من الطبقات فاسدة. وما من طبقة إلا وهي محتاجة إلى الاصلاح. كل طبقة في نفسها أصبحت منحلة.. أخلاقها سيئة، مداركها منحطة، لا تعرف رشدها، ولا تهتدي إلى سبيلها، ولا تدري كيف تعيش وكيف تحيا.

هذا العالم الإسلامي العظيم الذي يكاد يملأ نصف الكرة.. «٤٠٠

مليون» أو «٦٠٠ مليون» لو يرتبط ويتفق، بحيث يشعر بشعور واحد، ويعيش بروح واحدة.. هل كان يعقل أن هناك قوة تقابله أو تتغلب عليه؟.. كلا! وهيهات!

ولكن أنى لنا بذلك ونحن لا نقدر أن نتفق مع أخينا، ولا نستطيع أن نتفاهم مع صديقنا أو جارنا؟!.. أهل بيت واحد لا يتفقون ولا تكون فيهم روح واحدة يتبادلون في المنفعة ويشتركون في الفائدة ويدافع بعضهم عن بعض، فكيف بذلك العالم الشاسع الأطراف، الواسع الاكناف، المشحون بالبغضاء والعداوات، والخصومات والمنازعات، على أوهام فارغة وتخيلات واهية... لا صدق ولا أمانة، ولا تعقل ولا روية.. نختصم في كل شيء، وليس لنا من الأمر شيء، ولم يبق بيدنا شيء يستحق المنازعة.

أجدادنا العرب جاؤوا إلى الخليفة «عمر بن الخطاب» بتيجان كسرى وحلله وعرشه، وفيها من الجواهر والياقيت ما يختطف الأبصار ويدهش الأفكار، فتعجب الخليفة من ذلك وقال: «إن أمة تؤدي مثل هذا ولا تخون شيئاً منه لأمة أمينة يوشك أن تغلب على سائر الأمم».

كانوا يؤتمنون على تلك النفائس العظيمة.. ونحن لا نؤتمن على أعراض اخواننا، ولا على أموالهم، ولا على شيء منهم... ونخونهم في كل شيء، ويرمي كل واحد منا أخاه بالعظائم، ويقذفه بالفظائع، من غير ذنب ولا جناية!.. ذهب المتاع، وبقيت الخصومة والنزاع..

تنازع اثنان على خرج في فلاة من الأرض، فجعلا يتضاربان ويتلاكمان والخرج مطروح خلفهما.. فجاء سارق فسرق الخرج وولى!.. وبينا هما مشغولان بالتضارب والتسابب، إذ التفتا فلم يجدا الخرج، فكان حظهما الملاكمة والمخاصمة، والسارق أخذ الخرج غنيمة باردة... وهكذا نحن أيها المسلمون، قد تخاصمنا وتشاتمنا، وكانت الغنيمة لغيرنا.

أيها الناس!

اللص أخذ «الخرج».. فعلام هذه النزاعات والخصومات، والبغضاء والعداوات؟.. علام هذا التضارب والتنافس؟.. كل واحد منا يملأ قلبه حقداً وحسداً على أخيه!

أيها الناس!

الوعاظ والذاكرون والخطباء يخوفونكم من نار جهنم في الآخرة، ومن اغلالها وسعيرها وسلاسلها وحياتها وعقاربها.. وأنا احذركم من نار جهنم في الدنيا.. هي نار العداوة والبغضاء تلك ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾.. نار العداوة في الدنيا هي التي تتكون منها نار جهنم في الآخرة.. النمائم هي التي تصير في القبر عقارب وأفاعي.. الضغائن والاحقاد هي السكاكين التي قطعتكم ومزقتكم وجعلتكم طعمة للاغيار. هذه الأخلاق الذميمة في الدنيا، هي عين نار جهنم في الآخرة. الأعمال تتجسم، والأخلاق تتصور، كل واحدة بما يناسبها.

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ﴾... نعم! مال اليتامى اليوم هو عين النار غداً.

أيها الناس!

يوم الدنيا يوم الطي ويوم الآخرة يوم النشر.

النواة في عالم الطي نواة وفي عالم النشر شجرة، وقد انطوى في النواة كل ما في النخلة من سعف وجريد وتمر وغير ذلك..

وهذه الأخلاق الرذيلة، التي تبعثنا على الأفعال الذميمة المنطوية فينا، تظهر في يوم النشر حيات وعقارب، واغلال وسلاسل، تكون اطواقاً في أعناقنا... هي النار والسعير والسلاسل والاغلال حقيقة لا مجازاً. يقول جل شأنه -: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾... ومنشأ كل تلك الرذائل

هي الحرص والجشع والتهالك على الدنيا، وكله ينشأ من عدم الثقة بالله - عز شأنه -.

تريدون النصائح وهي موقوفة على ابداء الحقائق وذكر السيئات والمعايب، وأخشى أن ينهتك الستار، ويرتفع الحجاب، ويظهر العار. كل واحد منا حبله على غاربه، لا رادع ولا مانع، ولا هادي ولا مرشد.. وإذا عم الشر على البشر هلك الجميع.

هذه صفاتنا وأحوالنا النفسية. أما أعمالنا من حيث السرف والبذخ والتبذير، فهو الداء العضال الذي قتلنا. فلو كان هناك نفوس شريفة، وعلو همة، ورجال عزم وإباء، وفتيان شمم وشهامة، لنسجوا والله ثياباً من «خوص النخل» واستغنوا بها عن الملابس الأجنبية!.. وهل الذل والعبودية إلا الحاجة؟

«احتج إلى من شئت تكن أسيره».. كيف اشتري وادفع روحي وحياتي إلى الأجنبي؟!

«درهمك دمك، فلا تجره في غير عروقك».

ذهب عزنا يوم صرنا محتاجين إلى الأجانب في كل شيء حتى «الخيط والإبرة»، ويوشك أن نحتاج إليهم حتى في الخبز والماء. سقط العراق - كما تعلمون - في أعمق حفائر الفقر والفاقة، «ذهب الذهب وذهب كل شيء».. فالتجارة خسارة، والزراعة اضاعة.. وأي حياة لبلاد لا تجارة فيها ولا أرباح ولا زراعة ولا صناعة؟!

الشبان

أيها الشبان!

أيها الأولاد!... أيها الأكباد!.. يا زهرة البلاد!.. المستقبل

لكم، والبلاد بلادكم. نحن على وشك الرحيل وأنتم الخلف. ما هذا البذخ والترف في الأموال التي تسمونها «الكماليات» وهي عين النقصيات؟! كل أوضاعكم سرف وتبذير. ما هذه الربطة التي تضعونها في العنق؟.. هي والله رباط الذلة، هي رباط العبودية... ما هذه السفاسف والزخارف؟... لو إنكم تجمعون تلك الأموال التي تبذلونها لهذه الأمور التافهة، وتشترون بهاتيك الفضول، لاجتمع عند المسلمين أعظم ثروة، تستطيعون بها تأسيس مدارس عالية، وكليات إسلامية، تغنيكم عن الهجرة إلى بلاد الأجانب التي تمتص أموالكم، وتفسد أخلاقكم، وتمحق اديانكم. اما كان أحق بكم وأحرى عوض تلك الزخارف أن تجمعوا اثمانها لمستشفيات تحفظ صحتكم، وصحف تنور شبابكم وتثقف عقولكم؟

الإسراف والتبذير

ناهيك بالسرف في المأكولات والمشروبات، مما تجلبونها من الأجانب... كلنا نسعى على هلاك أنفسنا من حيث ندري ولا ندري، وبهذا صار كل قطر من اقطار المسلمين يئن من مخالب الاستعباد، ويرزح تحت نير الاستعمار.. والمسلمون ضعفاء في أوطانهم، اسراء في نفس بلادهم، اذلاء في عقر دارهم.

العز في الثروة، فإذا ذهبت الثروة ذهب العز. وما ملك الغرب الشرق إلا بالصنائع، وامتصاص ينابيع الثروة منه.

وديننا الشريف جاءنا بكل المصالح التي تعود علينا بالثمرات وابان لنا ضرورة الاقتصاد... ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾.

أليس الإمام زين العابدين عليه السلام يقول: «اللهم متعني بالاقتصاد،

واجعلني من ادلة السداد، ومن صالحي العباد. وامنعني من السرف، وحصن رزقي من التلف، واقبضني عن التبذير، وعلمني بلطفك حسن التدبير، وأجر من أسباب الخير ارزاقي، ووجه في أبواب البر انفاقي. . اللهم صن وجهي باليسار، ولا تبتذل جاهي بالاقتار، فأسترزق أهل رزقك واستعطي شرار خلقك، فافتتن بحمد من أعطاني، وابتلى بذم من منعني، وأنت من دونهم ولي الاعطاء والمنع. . .».

أيها الشبان!

البذخ جنون، والتبذير تدمير، والسرف تلف، والتدبير عز وبركة. إذا بقينا بهذا الفقر وبهذه الذلة متى يمكننا النهوض؟!

أيها الشبان!

مهما كان الأمر فعليكم المعول، والمستقبل إليكم، ونحن راحلون. اتدرون ماذا تعملون؟ وفي أي أودية تهيمون؟.

متى يرجى بالولد أن يكون من رجال الغد. . رجل حق وصدق، رجل نشاط وعمل. . وهو يقف ساعة أمام المرآة كل صباح ومساء، بين الاصباغ والادهان، والزينة، ونتف كل شعرة من وجهه، حتى يبرز بهذا التخنث والتأنث، وكأنه بنت مبهرجة! افبهذا تريدون أن تصيروا رجالاً بواسل كاسلافكم الأقدمين الذين فتحوا الفتوح، وملكوا الملوك؟!

يجب على الرجل أن يكون صلباً خشناً، يسمو إلى معالي الأمور ويتعود على المصاعب. . لا على الترف والنعيم. إذا لم يتعود على مكافحة المصاعب لا يكون رجل صدق وزعيم حق، وإذا تعلم على الزينة والبذخ متى يكون رجلاً عاملاً يدافع البهم ويكافح الأمم. تحترق عليكم أكبادنا يا أولادنا. . مستقبلكم مظلم، وخطتكم وخطياتكم مهلكة.

فلسطين والمؤتمر الإسلامي

عم البلاء، واستحكمت حلقات المحن، واشتد كابوس الضغط على كل قطر من اقطار المسلمين، وأصبح الإسلام في آخر رمق من الحياة، وفي حضيرة من الاحتضار. . ولكن الله سبحانه له عناية في دينه مهما تجرأنا وتمردنا عليه، وأن دينه عزيز عليه. .

على طف جزيرة العرب، وفي الجانب الغربي منها، أمة من الناس. . لسانهم لساننا، ودينهم ديننا، وكتابهم كتابنا، وقبلتهم قبلتنا، والدم الذي يجري في عروقهم من دمنا ودم آبائنا. . قد نشبت بهم منذ سنين اظفار «الصهيونيين» ومخالب الاستعمار، ووقعوا بين ذا وذاك، بين كابوسين، بل بين طابقين من نار. . حتى أصبح ثلاثة آلاف عائلة من المسلمين - أو أكثر - بلا مأوى ولا مقر. . . أخذت الصهيونية أراضيهم، واستنزف الاستعمار الغاشم أموالهم، واجلوا إلى شعف الجبال القاحلة، حيث لا زرع ولا ضرع.

الصهيونيون يبذلون لهم الأموال فيشترون أراضيهم، ويعدونهم بابقائهم فيها - لفلحهاوحرثها - . . ثم بعد قليل يطردونهم. . والضرائب الباهضة من وراء ذلك يستنزف تلك الأموال. . فيصبح أولئك المساكين لا أرض ولا مال، ولا مقر ولا مفر!

فلو كان المسلمون أمة لها قوة ومنعة، وكالجسد الحي الصحيح الذي يتألم بعضه لبعض، لكنا نغار عليهم، وندافع عنهم بكل ما في جهدنا. ولكن من أين وأنى ونحن كناقش الشوكة بالشوكة وضلعها معها؟! أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي!

نعم! هناك رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه.. فنهضوا نهضة الأسد الخادر، ووقفوا سداً منيعاً عن أن يجرف ذلك التيار صروح الباقين، واستغاثوا بإخوانهم المسلمين من أطراف الأرض فحضر ثلة من فطاحلهم في «المؤتمر الإسلامي» الذي بعث الله فيه من روحه ونشر عليه منه جناح بركة ورحمة.. ذاك حين علم - جل شأنه - بما انطوت عليه جوانح الداعين والملبين من روح الاخلاص والحفيظة، فنصرهم لما نصروه، ووازره لما وازروه ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾... فتقدم المؤتمر بنجاح لم يكن بالحسبان، وفشلت كل المساعي والدعايات التي وضعت في سبيل احباطه وفشله من «مستأجري الصهيونية» وإذناب الاستعمار وأبواقهم.. وكذا إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه.

وما كانت أعمال المؤتمر، وجهود أعضائه، ومحكمات مقرراته، تخص بالفائدة أهل فلسطين فقط، بل هو لصالح المسلمين أجمع، في جميع اقطار الأرض.

نعم! غرس طيب غرسناه لكافة المسلمين في تربة طيبة، فإن أحس المسلمون وأحسنوا القيام بواجبهم فسقوا ذلك الغرس وتعهدوه نما واثمر وآتى أكله شهياً طيباً، ونال الجميع حظهم منه، وإن تركوه واهملوه كما كان الغالب في سائر أعمالهم - لا سمح الله - قضى عليه في مهده، وأصبح كأن لم يكن شيئاً مذكوراً.. وهناك الخزي والعار على المسلمين عند سائر الأمم، ولا تقوم لهم قائمة بعد هذا أبداً.. فلينظروا لأنفسهم، فهذا هو الحد الفاصل بين الموت والحياة.

ما يلزم المسلمين

من الجمعيات وجمع المال

انظروا للمستقبل أيها المسلمون!

تداركوا أمركم، وانظروا مستقبلكم، واجمعوا شملكم.

هاتيكم الدول كلها منذ فرغت من الحرب الكونية إلى اليوم ما انفكت تجمع قوتها، وتوفر أموالها، وتشحذ أسلحتها، وتزيد عددها وعدتها ليوم مشئوم على الشرق، بل على العالم اجمع. ولا أدري أقريب هو أم بعيد، ولكن الساسة ونوابغ الرجال يتنبأون بحرب عالمية كبرى، ولا محالة ستكون أعظم من الأولى... أفلا يتحتم عليكم أن تنظموا صفوفكم، وتصلحوا شؤونكم، وتوحدوا كلمتكم.. حتى إذا دهمكم البلاء اتاكم وأنتم على بصيرة من أمركم، وعدة واستعداد من معرفة مصيركم؟.. قد تسرب الفساد إلى جميع الطبقات، وكل طبقة تحتاج إلى الاصلاح، سنة الله في الكون التي لا تتغير ولا تتبدل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

والاصلاح لا يتسنى إلا بتشكيل نقابات.. وهي تحتاج إلى هيئة عاملة مشرفة، تتصدر للتنظيم، وتجعل لكل صنف هيئة تنتخبها لتدبير شؤون ذلك الصنف، وتسعى لاصلاحه وجلب مصالحه، ودفع الاخطار عنه، واصلاح ذات بينهم، وحسم ما يقع من الخصومات بين افرادهم، والسير بهم إلى المساعي النافعة والأعمال المثمرة، وجمع مقدار من المال للكوارث والبلايا التي تنزل بهم من غير حسبان.

فلو أن هذه البلدة الطيبة، التي دعانا أهلها لزيارتهم، وساعدتنا العناية بهم على إجابتهم.. يجمع في كل يوم من كل فرد ربع «آنه» أي في الشهر نصف «ربية» لوجدوا كم يجتمع في السنة عندهم من المال، الذي يتمكنون به من انشاء المشاريع الخيرية النافعة لهم، ولا يتصور باذل هذا المبلغ الزهيد أنه يدفع المال لغيره، بل فليكن على يقين أنه يجمعه لنفسه، وهو كصندوق احتياطي له، يعود بالنفع عليه وعلى أخيه وجاره وولده وارحامه وقومه.

نعم! يحتاج هذا إلى نهوض جماعة من أهل الهمة والنشاط، ومن ذوي الشخصيات اللامعة، ليجمعوا المال بحنكة وحكمة وأمانة وحسن تدبير.. فلو عملوا على هذه المناهج لاجتمع عندهم من القليل كثير، وامكنهم بهذا أن يساعدوا «المؤتمر» وغير المؤتمر، وكل شيء.

ومهما بلغت الأزمة والضعف بأهل العراق، فإنها لا تبلغ إلى العجز عن بذل تلك المبالغ الزهيدة وذلك المقدار البسيط، الذي لا يكاد يحس... على أن دفع المقادير الكثيرة على أهل الهمم العالية ليس بكثير.

كان في «الاستانة» جامع منهدم في بعض محلاتها البعيدة المهجورة، لذلك أبت الحكومة عن بذل المصارف لتعميره، فنهضت الحمية برجل من المسلمين ضعيف الحال، أخذ العهد على نفسه أن يجمع ثمن كل ما يمكن الاستغناء عنه من لباس ومأكل ومشرب، ويجعله في صندوق لا سبيل إلى فتحه.. فكان إذا اشتهى فاكهة - مثلاً - أو ثوباً جديداً أو نحو ذلك منع نفسه عنه وطرح ثمنه في الصندوق. وبعد مرور سنتين أو ثلاث اجتمع في الصندوق مال كثير، فاخرجه وبنى به ذلك الجامع بناءً فخماً، ووضع على بابه صخرة كبيرة مكتوباً عليها باللغة التركية: هذا جامع «كأني أكلت، كأني شربت، كأني لبست»!

العمل والنشاط

العمل العمل.. أيها الناس!

فوالله ما ترقى الغرب الذي ملك العالم إلا بالعلم والعمل! وما سقط الشرق وتأخر إلا بالجهل والكسل، والخلاف والجدل.

الخلاف هو الذي يهدم الرأي، ويهلك الأمة.. النزاعات هي آفتنا القتالة المهلكة، ولا شغل لنا سواها. وكلها على أوهام خيالية فارغة عكس ما أمر الله - سبحانه - به، وما جاءتنا به الشريعة السمحاء المهذبة للأخلاق، الكفيلة باقتلاع كل الجراثيم التي تقضي بهلاك الإنسان وهلاك أمته.

إن شريعة الإسلام جمعت السعادتين: سعادة الدنيا، وسعادة الآخرة. وأخذت بالعدل، وزادت عليه بالعفو والفضل... ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾.

وزين العابدين - سلام الله عليه - يقول في دعاء مكارم الأخلاق من زبور آل محمد: «اللهم صل على محمد وآله، ووفقني لأن اعارض من غشى بالنصح، واجزى من هجرني بالبر، واكافي من قطعني بالصلة، وأخالف من اغتابني إلى حسن الذكر».

اما نحن.. فقد عكسنا هذه القواعد الذهبية، وصرنا نجازي مْن نصحنا بالغش، ومْن برنا بالهجر، ومْن وصلنا بالقطع.. وكلما أصابنا فبما كسبت أيدينا، وقد أرشدنا المصلحون.. ولكن نحن الضايعون والمضيعون.

الحفاوة والحفلات

وجدنا من المسلمين في سفرنا هذا من العراقيين وغيرهم من أهالي «فلسطين» و«سوريا» من كل من مررنا عليهم.. اكمل الحفلات، واكرم الحفاوات. وجدنا منهم الشعور الرقيق، والتأثر العميق، والسخاء العربي، والحفيظة الإسلامية، وكلما يرق ويروق للناظر والسامع من هذه الطلائع. ولا شك أن مساعيهم مشكورة، وأجورهم عنده - تعالى - مذخورة.. ولكن هل في شيء من ذلك ما يشفي العلة ويبرد الغلة؟

إن الذي يراد من المسلمين، والذي يجب أن يسعى إليه الجميع، هو العمل المنتج، العمل المثمر، العمل الذي ينفعهم في الدارين.

لا نريد حفاوة ولا تكريماً، ولا تجلة ولا تعظيماً.. نريد أن تكونوا رجالاً أشداء على الأعداء، أقوياء في عزائمكم، رحماء فيما بينكم.. أمة صحيحة صالحة، وأسود مجد وسؤدد يحامي بعضهم عن بعض... هذا الذي يسرنا منكم، هذا هو الذي ينعش قلب الرجل الناصح، ويطرب سمع المجاهد المخلص.. أما هذه الحفاوات، فماذا انتفع بها أنا، وماذا تنتفعون أنتم بها؟

أريد أن تكون الأبناء كالآباء في النخوة والإباء، والأولاد كالأجداد في الحزم والسداد، والخلف كالسلف في العز والشرف. ضحك لهم الدهر وعبس علينا، وما أدري أحسن إليهم واساء إلينا، أم كل ذلك مما جنيناه على أنفسنا؟!

عبسن لنا وجوه الدهر حتى ... تناهشنا بأثياب حداد
فلا ندري السقوط بأي غور ... ولا ندري الهبوط بأي وادِ
وكنا نجتني ثمر المعالي ... فصرنا نجتني شوك القتاد!!

أيليق بأمثالكم أن تغمرهم الفترة، وتمر عليهم السنوات وهم في سنة الغفلة؟.. ألا تبعثكم الشهامة؟.. ألا تحفزكم الكرامة وأنتم سلائل أولئك البواسل الفاتحين الذين فتحوا هذه الممالك وأوجدوا لكم هذا العز العظيم؟

يا أهل شريعة الكوفة!

قد اجبنا دعوتكم، ووفينا بوعدكم، وأنتم تطلبون منا مواعظ ونصائح، ولا أجد جزاء لكم وعاطفة عليكم الزم وأهم من أن انصحكم في شيء واحد: أوصيكم - وكل المسلمين - بتصافي القلوب، ورفع الحزازات والبغضاء، وتعاطف بعضكم على بعض، بحيث تكون لكم وحدة وتضامن، وتتوثق ما بينكم عرى الإخوة وروابط المحبة.. اجتمعوا واجمعوا المال لليوم الأسود الذي سيغشى العالم لا محالة.. ساعدوا الضعيف، ارحموا اليتيم، اقبلوا عثرات ذوي المروءات، وخذوا بيد من رماه الدهر بنكبة من النكبات.

أيها المسلمون!

دين الإسلام دين الفطرة، دين الرحمة والبركة، دين العلم والعمل، لا دين البطالة والكسل.

الإسلام دين التوحيد، يعني يوحد الله في العبادة، ويوحد المسلمين في الإخوة.

الإسلام بوتقة تذوب عندها العناصر.. الكل سواء بالنظر إلى الحق والعدل.

دين الإسلام كيمياوي يوحد العناصر المختلفة.. العربي، والفارسي، والهندي، والتركي... وكل البشر سواء. أي دين جاء للبشر بهذه السعادة؟.. ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ

وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ﴾.

إذا أردت أن تتزعم وتترأس اخدم أمتك، اخدم وطنك، فإن الزعيم المحبوب خير من الحاكم المرهوب.

الزعيم المحبوب هو من يخدم أمته ويخلص لوطنه وقومه، من يدافع عن كلمة الحق، من يثبت على مبدئه، ويسهر لمصلحة بلاده. ليس الزعامة بالدعاوي والفخافخ.. أخدم تجد خداماً.

أيها الناس!

أنا داعي الله.. أنا داعي الحق.. أنا داعي الوحدة.. أنا داعي الصلاح والاصلاح.. أخشى بدعوتي هذه وفي مقامي هذا أن تتم عليكم الحجة.. إذا لم تنشطوا للعمل ينزع الله عنكم البركات، ويرفع الخيرات، ولا يكون لنا في السماء عاذر، ولا في الأرض ناصر.

السياسة والاصلاح

أنا لا أؤيد السياسة ولا اعارضها.. لا أؤيد ولا أفند.. ولا أمدح ولا أذم.. ولا زلت أقول: أن السياسة جمرة نار أحسها ولا ألمسها.. اراها بعيني ولا أمد لها يدي. لا أقول هذا خوفاً ومجاملة، ولا طمعاً ولا رجاء، فإن الله - سبحانه - قد عافاني من رذيلتي خوف الناس ورجائهم.. من كان قوى الثقة بالله لا يخاف ولا يرجو إلا الله... ولكن أقول ذلك علماً واجتهاداً، ويقينا واعتقاداً.

كان السيد الأفغاني - رحمه الله - يقول:

«الأحزاب السياسية للأمة نعم الدواء، ولكنها في الشرق تنقلب غالباً إلى شراء داء».

ومعنى ذلك: أن الاشتغال بالسياسة لا ينفع الأمة إلا إذا كان منبعثاً

ومتشبعاً بروح الاخلاص، والاخلاص عزيز.

السياسة مع المطامع داء ومع الاخلاص نعم الدواء... هذا مع أني اعتقد أن الأمة لا تسود إلا إذا كانت آراء المعارضين محترمة لديها مقدسة عندها، والحقيقية ضالة الجميع، ولعلها في جانب خصمك أكثر مما في جانبك.

فاجتمعوا وتحابوا وتفاهموا، عساكم تصيبوا الحقيقة.

يلزمنا أن نصلح أنفسنا قبل كل شيء. كيف نأمل أن نصلح الممالك والحكومات ونحن غير صالحين؟! نحن بعد لم نصلح شؤون بيوتنا، وأخلاق عائلاتنا وأولادنا، وأهل بلادنا... فكيف نستطيع اصلاح غيرنا؟.. لنصلح أنفسنا، ونعلم أبناءنا وأهالينا.

إننا إذا أردنا أن نعيش أمة حية قوية، مثرية غنية، يلزمنا أن نلبس من غزل أيدينا، ونأكل من نتائج أراضينا، ونستغني عن مصنوعات غيرنا جهد إمكاننا.

هل الأسر والعبودية إلا الحاجة؟.. ونحن في كل شيء محتاجون إلى غيرنا (الصغيرة والكبيرة).. وكل ذلك من ضعف الإرادة، وقصور الهمة، وتشتت الكلمة. الأخ مع أخيه، والوالد مع ولده، وكل قريب مع قريبه غير متفاهم ولا متصافي.. القلوب مشحونة بالبغضاء والشحناء على أوهام لا وجود لها وتخيلات لا حقيقة فيها!

كان لرجل بستان خرج منها إلى داره القريبة منها، وبينا هو راجع من بيته لبستانه، فإذا برجل خرج من البستان راكضاً خائفاً وجلاً، فقال له صاحب البستان: ما دهاك أيها الرجل؟ ومما هذا الخوف والاضطراب؟ فقال: دخلت هذا البستان لاستريح قليلاً وإذا به مملوء بالضباع!.. فاستغرب البستاني ذلك، إذ قد فارقه قريباً ولا شيء فيه.. فقال له: كم عدد ما رأيت فيها من الضباع؟ قال: مائة على الأقل! فقال له: اظنك

مشتبهاً، فتأمل جيداً. فتنازل إلى الخمسين.. ولم يزل البستاني يشككه ويأمره بالتدبر والتروي إلى أن قال: أما الواحد فلا شك فيه، وقد رأيته الآني بعيني! فقال البستاني: نعم هذا جائز فهلم معي إلى البستان كي تدلني عليه ولا تخف. فدخلا البستان، وإذا على شجرة منها عباءة سوداء منشورة، ظنها الضعيف القلب ضبعاً.. ثم غلا في وهمه وجعل الواحد مائة!!

وهكذا نحن بعضنا على بعض، نسيء الظن بإخواننا ثم نجعل الواحد مائة.. وفي الحقيقة لا واحد ولا مائة. ويشيع الواحد منا على أخيه العيوب والمخازي ولعله برىء منها جميعاً.. مع أن الله - سبحانه - أمر بالستر ونهى عن اشاعة الفاحشة.

أيها الناس!

قد بذلت لكم النصائح، ودللتكم على العلل والأمراض، وشخصت لكم الداء والدواء، ولا أريد بذلك جاهاً، ولا مالاً، ولا زعامة، ولا كرامة.. أنا بفضل الله غني عن ذلك.. ولكن الذي يسرني منكم وأعده السعادة لي ولكم أن تندفعوا إلى العمل والشروع في المشاريع النافعة، ولا تتواكلوا، ولا تتخاذلوا، فحسبكم ما مر وجرى عليكم. واعلموا أن القول وإن كثر، والوقت وإن طال، ولكن ما تكلمت إلا من ناحية من نواحي الحقيقة وحواشيها دون الصميم والصريح منها. والحقائق كلها مطوية لا سبيل إلى بيانها.

الثقة مفقودة، والألسن معقودة، والعقول معقولة، والأيدي مغلولة.. فماذا يقول اللسان وهو معقود بألف عود.

أقول وقد شدوا لساني بنسعة أمعشر تيم أطلقوا لي لسانيا

ولكن ربما تسألون: ماذا كانت النتيجة والغاية من كل تلك الكلمات وصرف ساعتين من الأوقات... فالجواب المختصر الكافي: أن كل أمة

لها حس وشعور فهي لا محالة تطلب سعادتها.. ولا تحصل السعادة إلا بوسيلتين، ولا تقوم إلا على دعامتين: «الاتحاد والاقتصاد». إذا اتحدتم سعدتم، وإذا اقتصدتم سعدتم. إذا اتفقتم وفقتم، وإذا اختلفتم تلفتم.

نحن محتاجون إلى الاقتصاد في كل شؤون الحياة، وفي جميع أعمالنا وأحوالنا. وليس المراد بالاقتصاد حبس الأموال في جميع الأحوال، بل الاقتصاد الحرص على جمع المال من سُبلِه المشروعة، وحبسه عن الانفاق إلا في مواضع الشرف أو الضرورة. الاقتصاد انفاقة في مواضع الشرف لا مواضع السرف والترف والشهوات البهيمية. احرص عليه في موارد السرف، لتنفقه في موارد الشرف.

أين السامعون العاملون بأحسن ما يسمعون؟!.. جعلكم الله من الذين يقول فيهم - جل شأنه -: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾، ولا يجعلكم ممن قال فيهم: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾. والكثير من الناس وإن صاروا على هذا الحال وبهذه الصفة، ولكن لا يأس من روح الله. وارجو أن يكون لكلماتي أثر في نفوس العموم، لأني اتكلم - كما يعلم الله - بروح شفقة واخلاص وحنان ورحمة.. اتكلم معكم عن قلب.. والكلام - كما قيل - إذا خرج من القلب دخل في القلب.

أيها الناس!

أنا النذير العريان.. أنا النذير المجرد عن كل غرض وغاية سوى غاية خيركم وصلاحكم... لذا أملي قوي أن كلامي هذا سوف لا يذهب - بتوفيقه تعالى - ادراج الرياح، ولا يعود - كما يقال - صيحة في وادٍ، ونفخة في رماد.

وأملي أن يكون تأثيره في «النجف» التي هي بمنزلة الدماغ المفكر

من العراق، وفي «شريعة الكوفة» التي هي بمنزلة الكف والساعد من النجف.

أيها الناس!

أنا كما تعلمون «رجل روحاني».. لست بخطيب، ولا واعظ، ولا ذاكر.. ولا استطيع كل يوم، بل ولا كل شهر، أن اقرع سمعكم واسمع جمعكم بأمثال تلك الكلمات الرائعة والنبرات اللاذعة، وأنا عند نزولي عن هذه الأعواد سوف أعود إلى أعمالي الدينية ووظائفي الروحانية، من التدريس والصلاة والفتوى، وارجو أن تشتغلوا أنتم بالاجتماع والمفاوضة، وتعيين الخطط والمناهج.

والله - سبحانه - يسعدكم ويساعدكم، ويأخذ بأيديكم إلى سبيل النجاة والنجاح إن شاء الله.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الخطب الأربع

الخطب الارتجالية الأربع التي تفضل بألقائها سماحة المصلح العظيم، حجة الإسلام والمسلمين، الإمام الراحل، الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء على جماهير «العشار» و«البصرة» و«الحلة» و«النجف الأشرف» بعد عودته من إيران.

وقد طبعت هذه الخطب في كراس مستقل تحت عنوان «الخطب الأربع» بمطبعة الراعي في النجف الأشرف سنة ١٣٥٣ هجرية.

الخطبة الأولى

هذا ما أمكن ضبطه للكاتبين ساعة الالقاء من خطاب سماحته في «جامع المقام» في العشار يوم ٧ ذي القعدة ١٣٥٢هـ الموافق ٢١ شباط ١٩٣٤م. وقد ذهب أكثر من ثلثها لعدم إمكان ضبطه لشدة انحدار الخطيب في الكلام بين حماسه وتهيجه.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال - سبحانه وتعالى - في كتابه المجيد: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾.

أول حادث حدث في البشرية، منذ فجر يومها الأول ومبدأ تاريخها القديم، أن قتل نصف العالم نصفه، حيث قتل ابن آدم أخاه. ومن ذلك اليوم أخذت البشرية تقاسي آلاماً وتعاني عللاً واسقاماً، ويعادي ويعتدي بعضها على بعض، وفي كل يوم ينتشر الشر، ويتفاقم البلاء، وتعظم الرزية.

على ذلك تعاقبت الأيام، وسلفت الدهور، ومضت القرون، ونسلت الأحقاب.. وإذا بالفضيلة تهبط إلى الحضيض وتتربع الرذيلة على كرسيها، فتعالى الضرر، وتفاقم الشر، وأستحكمت العصبية، وبقي العالم

يسود فيه التباغض والتحاسد والتناكر والتفاسد، ولا شيء فيه من التراحم والتوادد. . غنيهم يستعبد فقيرهم، وقويهم يفترس ضعيفهم، يغتصب كل منهم حق صاحبه، ويشرب كل واحد دم أخيه، ولكن الغاية الأزلية - جلت بركاتها - لم تزل تشفق على هذا المخلوق التعيس، فترسل إليه رسلاً معالجين، ورجالاً صالحين ومصلحين، وأطباء ماهرين، نبياً بعد نبي، ووليّاً أثر ولي، وصالحاً تلو صالح، يهدون ويرشدون، ويعاجلون ويعالجون. . . فلم ينفع ذلك في البشر إلا ما شذ وندر، والشر على ما كان عليه.

ابتعثت العناية نوحاً، وهو شيخ الأنبياء وأب الرسل، فخاطبهم بلغتهم، وابلغ في الدعوة، واقام عمراً طويلاً - ألف سنة إلا خمسين عاماً - ليهتف فيهم ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، داعياً إلى الصلاح والاصلاح، فلم يؤثر فيهم شيئاً. وكان عاقبة كل ذلك الطوفان، وما استجاب له ونجا معه إلا نفر قليل.

جاء إبراهيم، وتلاه إسحاق ويعقوب، ثم جاء موسى - وهو بطل الأنبياء والقوي الأمين - واعتضد بالمعجزات الباهرات، من العصا وفلق أليم وأمثالها، فكانت نتيجة بني إسرائيل ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾. وأعظم من ذلك عبادة العجل والتخبط أربعين سنة في التيه.

ثم آل الأمر إلى عيسى الذي يدعونه بالمُخِّلص، فأراد أن يخلص البشرية من رذائلها فلم يفلح ولم يصنع شيئاً، وأصبحت أمته اليوم شر أمم العالم وأشدها في الظلم والقسوة. . ثم كان عاقبة أمره الصلب.

كل ذلك والبشرية يتفاقم شرها، ويتعاظم بلاؤها. . إلى أن نفخت العناية بجوهرتها المكنونة، ولطيفتها المخزونة. . ارسل إليهم الحكيم الأعلى والطبيب الإلهي الذي ما فوقه طبيب، أرسل إليهم سيد الرسل

محمد بن عبد الله ﷺ، فشخص داءها ودواءها، وعرف العلاج الشافي لها، والدواء الناجع القالع لجرثومة أمراضها.

عرف أن الداء العضال والمرض القتال إنما هو التفرقة الناشئة من توغل الأنانيات والعصبيات الباعثة على التفاخر ثم التنافر فالتقاطع التدابر.. فدَّك العنصريات، وسحق القوميات، واستهلك العصبيات، فصرخ الوحي على لسانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾، ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾. ثم زاد وأوضح البيان فقال: «الناس كلهم لآدم وآدم من تراب. لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»، «ليس منا من دعا إلى عصبية»، يعني لا فخر بعجمية ولا عربية ولا هندية ولا تركية، وإنما الفخر بالعمل الصالح والمزايا الطيبة، الفخر بالفضيلة واجتناب الرذيلة.

نعم! العصبية والأنانية هي كل الداء، والاعتماد على الفضيلة هو منتهى الدواء.. عين الدواء بعد أن شخص الداء، ولم يبق إلا الاستعمال، ولذا كانت شريعته خاتمة الشرائع ودينه أكمل الأديان.

كان ينادي في كل ملأ ومجتمع: «أما والذي نفس محمد بيده! إنكم لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تجتمعوا، ولن تجتمعوا حتى تتحابوا».

ثم مضى على ذلك صحبه الكرام، فساروا على خططه ومناهجه واحداً بعد واحد، فكانوا إخواناً على صفاء.. حتى خاضوا البحار وملكوا الاقطار، وهم أعراب بادية، لا درس ولا مدرسة، ولا كتاب ولا مكتبة.. فتقدموا ذلك التقدم الباهر، ونجحوا ذلك النجاح الزاهر.. كل ذلك بقوة الإيمان، وعدة الوحدة والاتفاق، ونبذ التفاخر والاختلاف، حتى أخذوا بقرني الشمس مشرقها ومغربها.

قال أمير المؤمنين عليه السلام في النهج في إحدى خطبه: «الزموا السواد

الأعظم، فإن يد الله مع الجماعة. واياكم والفرقة! فإن الشاذ من الناس للشيطان، كما أن الشاذ من الغنم للذئب، إلا ومن دعا إلى هذا الشعار فاقتلوه ولو كان تحت عمامتي هذه» ويعني بـ «هذا الشعار» شعار التفرقة.

كلت الألسن، وعجزت الأقلام، وتعبت الصحف من الدعوة إلى الوحدة والتوحيد وبيان أن الداء الدوي الذي انهك الإسلام وأهلك المسلمين هو التفرق والتباغض، حتى صارت الذئاب تفترسهم والاذناب تتريسهم.

فكم قام من حكيم عرف الداء ودعا إلى استعمال الدواء، ولكن لم ينفع، وبقي الحال على ما هي عليه من سيء إلى أسوأ، ومن تعيس إلى اتعس.

كلت السنتنا، وملت وتصدعت أقلامنا، وصرنا نخشى أن نتكلم في سبيل الوحدة أو ندافع عن التفرقة، وأصبح حديث الوحدة والاتفاق مهزلة من المهازل!

الصهيونية

قلنا قبل هذا: إن الإسلام قد بني على دعامتين: «توحيد الكلمة» و«كلمة التوحيد».. توحيد الخالق، وتوحيد بين الخلائق. كم قلنا وكم نبهنا وكم صرح الحكماء والمصلحون قبلنا، ولكن هل أثر ذلك شيئاً؟ كلا! لا والله حتى صرنا اليوم نخجل أن نتكلم في اتحاد أو جمع كلمة، وحتى عرف رجال الغرب أن المسلمين اتفقوا على أن لا يتفقوا، وأبوا إلا أن يتفرقوا! وأصبحت الأذناب تعلو على الرؤوس، حتى آل الأمر إلى اسوأ الأحوال، وصارت الصهيونية التي هي طريدة العالم ونفاة الأمم يتكلمون في بلادنا، ويبثون الدعاية الواسعة بين أظهرنا، ونحن مشغول بعضنا ببعض، والبلاء محيط بنا من جميع جوانبنا.

إن الصهيونية من أخطر بالبوائق وأعظم البلاء.. جمعية أقوام متفرقة أعداء الإسلام في بلاد المسلمين، يجمعون أموال المسلمين ويملكون أراضيهم والمسلمون مشغولون عنهم.

ليست الصهيونية بلاء على فلسطين وحدها، بل هي بلاء على العالم أجمع.. يجمعون الأموال بكل حيلة ووسيلة، ويرسلونها إلى إخوانهم في فلسطين لينشؤوا فيه وطناً قومياً.

الصهيونيون يرون أن الأموال التي في أيدي الناس مغتصبة منهم، وأن المال كله في الأرض لإسرائيل وبني إسرائيل، بل الأرض كلها لهم، فيجب أن ينتزعوها من أيدي الناس بكل مكر وخديعة.

أين حميتكم أيها المسلمون وأين غيرتكم؟ أين جمعياتكم وأين جهودكم؟.. خمسة عشر مليون كل ما في العالم تلاعبوا بالدول والهبوا نار الحرب والفتن بين عامة الأمم مسلمة ونصرانية.

المسلمون أربعمائة مليون تغلبت عليهم تلك الفئة الضئيلة، حتى أخذوا أزمة الأمور، وقبضوا روح السياسة، واستولوا على دفة الحكم... فما من دائرة من الدوائر في العراق، بل وفي غيره من الممالك الإسلامية، إلا وتجد لليهود فيها يداً عاملة تنفذ السموم القاتلة، إذ جميع اليهود على الاغلب صهيونيون، ولا أحسب يهودياً غير صهيوني.

لقد تخدرت أعصابنا، وماتت هممنا، وخمدت عزائمنا، فأصبحنا أسراء في ديارنا واذلاء في أوطاننا، ولا نعلم ماذا يراد بنا وكيف يكون مصيرنا.

الله أكبر! ما اعضل هذا الداء!... كيف لا ينفطر قلب المسلم الغيور إذا بلغه أن نساء المسلمين، من الضعفاء والمساكين في بلادكم هذه، وهي من عواصم بلاد الإسلام، يستخدمن عند اليهود والأجانب

وأنتم ساكتون، تنظرون ولا تفكرون، وتبصرون ولا تبتصرون.. أليست نساء إخوانكم وأعراضهم أعراضكم؟! أفلا تهيج غيرتكم وتثور حميتكم؟!

أيها الناس!

أنا نذير الله إليكم! الله الله في بلادكم! الله الله في دينكم!.. دين الله وديعة عندكم وقد أصبح مهدداً، فإن لم تتفقوا وتتحدوا فسينزعه الله منكم فتنزع عنكم كل خير وبركة! وإذا بقيتم على هذا الحال من الفرقة والتقاطع فستذهب ريحكم ويتمزق شملكم وتكونوا أذل من قوم سبأ!

هنالك لو تدعو كليباً وجدتها أذل من القردان تحت المناسم

أيها الناس!

قلنا ولا نزال نقول: إن الاتفاق والاتحاد ليس من مقولة الأقوال ولا من عالم الوهم والخيال، ويستحيل أن توجد حقيقة الاتفاق والوحدة في أمة ما لم يقع التناصف والعدل بينها باعطاء كل ذي حق حقه، والمساواة في الأعمال والمنافع، وعدم استئثار فريق على آخر.

ولكن أين ذلك وأين؟

كاد أن يغلب على القنوط واليأس منكم... ذهبت إلى إيران وكنت يائساً على حسب الشائع والمسموع. ولكن - بحمد الله - وجدت كل ما يرتاح إليه طالب الصلاح والاصلاح، ونجحت نجاحاً باهراً.. ولكن في بلادي أخفقت على رغم كل جهودي، ويا للأسف!

الله الله في أوطانكم!.. الصهيونية بين اضلاعكم، وهي سوس السياسة، والبلاء المبرم، والداء العضال.. وأنتم هامدون خامدون، لا تحسون بهذا البلاء العظيم الذي ينذركم بالتلف.

أيها الناس!

إن البلاء لعظيم، لا يبقي منكم باقية، ولا يذر في الدار دياراً. كل

عام، بل كل شهر، تشد قناطير الأموال من العراق وتذهب إلى جمعية صهيون، فهل أولياء الحكم في العراق يعلمون؟... نعم! يعلمون ولكن هل يعملون لدفع هذا الخطر؟ أم نحن أزاء اليهود صم بكم فهم لا يفقهون؟!

«إن اللبيب من الإشارة يفهم».

الصهيونيون طرداء العالم ونفاة الأمم.. يوماً تطردهم «المانيا» ويوماً «فرنسا» وآخر «اسبانيا» و«النمسا».. وهكذا كل برهة وكل مملكة. لا تستطيع حكومة من حكومات أوروبا ذات الحول والطول أن تحملهم. دولة المانيا القهارة ذات الصناعات الباهرة وملكة الجو لم تقدر - يا أمة الإسلام - على تحملهم حتى أخرجتهم من بلادها، ولكن زجهم القضاء الأسود إلى فلسطين فاوشكوا أن يبتلعوها، ثم يسري البلاء إلى سوريا ثم إلى العراق.

هم لا يزالون يدأبون في السعي، مخططين الخطط ومشكلين المناهج.. ونحن غرقى في المنام، نتضارب في الأحلام، ويقاتل بعضنا بعضاً على الأوهام.

أين العزائم؟ أين الهمم؟ أين الرجال؟...

يا أيها المسلمون! كونوا رجالاً... والله - ويا للأسف! - لسنا برجال، بل ولا أناثي ولا مخنثين!.. أهذا شأن الرجال؟.. أين اصلاحكم؟ أين جمعياتكم؟ أين معارفكم؟.. القوم في جد واجتهاد وأنتم مشغولون بالزخارف والسفاسف التي لا تنفع ولا تجدي، والتي لا يبلغ الإنسان بها إلى مجد ولا رفعة. أنتم مشغولون بالمقاهي والملاهي والسينمات والأشياء التوافه الساقطة.. اتقوا الله أيها الناس: «إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون المعاد فكونوا احراراً في أوطانكم» كلمة عظيمة قالها ذلك الرجل العظيم أول الإسلام.

أيها الناس!

أول مجدد شرف في الإنسان الغيرة، ومن لا غيرة له لا حس له ومن لا حس له ليس بإنسان.

أيها الناس!

اتركوا هذه الأعمال المضرة بأخلاقكم ونفوسكم وأموالكم. الخطر قد أحاط بكم من كل جانب. اتركوا هذه السفاسف المضرة في دينكم ودنياكم.

إن هؤلاء الذين جاؤوكم بالسينما والخمر والميسر اللذين حرمهما الله في نص كتابه، لا يريدون نفعكم، وإنما جاؤوا بها ليفسدوا أخلاقكم ويستلبوا أموالكم ويوقعوا بينكم العداوة والبغضاء ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾. لكن نحن قد عكسنا الآية! الله سبحانه يقول: ﴿فَٱجْتَنِبُوا﴾ ونحن نقول: «فارتكبوه»!

أيها الناس!

اشربوا.. العبوا.. اكثروا التردد إلى السينما والملاهي.. الله أكبر! أين العقول؟ أين الحجى؟ أين الأحلام؟.. ما طبكم؟ ما دواؤكم؟.. القوم رجال أمثالكم.. أنتم رجال وهم رجال، فما بالكم تأخرتم وتقدموا، وجهلتهم وتعلموا؟... كيف تريدون الاعتزاز كالأمم؟ انظروا إلى جامعتهم وعصبيتهم وتألفهم. اعتبروا باذل الأمم «اليهود».. يهودي في الصين وآخر في العراق.. الروح واحدة والقلوب متفقة والآراء سواء. إذا أصيب أحدهم بمكروه في العراق تألم الآخر له في الصين، وإذا ضرب يهودي في المانيا صاح كل يهودي في العالم «آخ!» وصرخوا صرخة واحدة، وهذه الصفة هي من أساسيات قواعد الإسلام حيث يقول:

«المؤمن من المؤمن كالعضو من الجسد، إذا تألم عضو تألم له سائر الجسد» «المسلمون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً». ولكنا - ويا للحسرة والأسف! - بناء مفكك يهدم بعضه بعضاً!

فكأن تلك الوصايا التي أوصانا بها الله ورسوله قد أوصى بها اليهود وأوصانا بخلافها!!

مغزى الوحدة

بعد تلك المقالات والخطب الرنانة التي القيتها في بغداد في «الحسينية» في إحدى ليالي شهر رمضان زهاء أربع ساعات في جمع لا يقل عن خمسة آلاف.. فماذا كانت النتيجة؟

كانت النتيجة «كتاب الحصان»... فانظروا ما أحسنها من نتيجة، وانظروا كيف تؤثر الخطب والنصائح في بلادنا وأمتنا... والله يسترد بلطفه من مغبة اجتماعنا هذا وأمثاله...

أيها الإخوان!

لا نجاح ولا فلاح ما دامت أمورنا تمشي على المجاملات دون المصارحة والحقيقة.

أيها الناس!

قد تعودنا على النفاق والمداهنة والمكر والخديعة... يخدع بعضنا بعضاً ونسميها «مجاملة».. كلنا كذابون، كلنا منافقون كل أمورنا مبنية على النفاق. لا نصارح بالحقيقة ولا نعطي الحقيقة حقاً... أنا أحدكم وعلى غراركم.

لساني يقول ولا أفعل، وقلبي يريد ولا أعمل، واعرف رشدي ولا اهتدي، واعلم لكني اجهل... نحن مملوؤن نفاقاً وخداعاً، وتحت كل شعرة منا شيطان!.. نحن جميعاً نتبع الهوى ونعبده ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ

هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أيها المسلمون! إنما أنتم إخوان على دين الله، ما فرق بينكم الأسوء السرائر وخبث الضمائر، فلا توازرون ولا تناصحون ولا تباذلون ولا توادون». وكان سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم لا يزال ينادي في أصحابه: «أيها المسلمون! لا تتباغضوا، فإنها والله الحالقة.. لا أقول حالقة الشعر ولكنها حالقة الدين والدنيا».

أيها المسلمون!

على من هذا التضارب والتباغض؟... كل واحد منا يقول للآخر «أنا أخوك» و«نحن إخوان ومتحدان» ولكنه يريد أن يخدعه بذلك، ولو كان أخوه حقاً لانصفه على الأقل إذا لم يواسه ويؤثره على نفسه.

أيها الناس!

لا تتقدم الأمة ما دام أحد أفرادها يسلب حق الآخر، وإنما تتقدم الأمم بالعدل والتناصف واعطاء كل ذي حق حقه.

الإخوان المشتركون في دار واحدة إذا اختص أحدهم بالغرف والعلالي وترك الآخرين تحت السماء يلفحهم حر الهجير وبرد الزمهرير، ويقول لكل منهم أصبر واحتسب فأنا أخوك... يستحيل أن يقنع بذلك القول وأن يدوم الصفاء بينهما ويتحدا حقيقة.

أعطه حقه وناصفه تكن أخاه، وإلا فليس إلى الراحة بينهما من سبيل، ولسنا بالغين المرتبة التي أدبنا الله بها وحثنا عليها، فقال جل شأنه: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

حارت العقول، وضلت الألباب، وتاهت الأفكار في طب المسألة وعلاجها.. فكم من حكيم ذهبت عصارة أكفاره ادراج الرياح، وراحت نفسه عليهم حسرات.

غلب الشر منذ كان على الخلق ومـــاتـــت بغيظـــه الحكمـــاء
وإذا مـا العقـول لـم تقبـل النصـح فمـــاذا تفيـــده النصحـــاء؟

وجوب ترك الخمر والميسر

غاصت الأمم في البحار، وطارت في السماء، وقبضت عى مفاتيح خزائن الأرض، وبلغت اقصى مراتب الرقي والعمارن، وأخذت زينة الحياة الدنيا بحذافيرها... وبقينا مذبذبين حيارى لا دنيا ولا آخرة!... ذهب العز والمال، وذهب الشرف والاستقلال وذهب كل شيء.

أيها المسلمون!

اعلموا - وأنتم تعلمون - أن الأمر أصبح محسوساً وملموساً..

اضرب بطرفك - أيها المسلم - حيث شئت من الأرض، شرقها وغربها، هل تجد مملكة إسلامية أو قطراً من اقطار المسلمين لا يعاني بلاء الاستعمار ولا يرزح تحت نير الاستعباد ولم يعد أسيراً في بلاده أو ذليلاً في عقر داره وغريباً في وطنه... انظر في الغرب: تونس، ومراكش، والجزائر... وفي الشرق: مصر وسوريا والعراق والجزيرة، كلها في البلاء سواء، وإن اختلفت أنواع البلاء واشكال المحن.

أليس كل ذلك من تقاطعنا وتفرقنا؟ أليس كل ذلك من تركنا لاحكام ديننا ونواميس شريعتنا؟

ألستم تعرفون الخمر ومضارها وفظاعة تحريمها في شريعة الإسلام، ومع ذلك تذهبون وتشربون جهاراً ومحاربة لله ورسوله؟! أليست أصبحت تباع في أسواق المسلمين جهاراً وعلانية محاربة ومخالفة للقرآن؟

أليس الربا والقمار أصبح شائعاً عند المسلمين بغير نكير؟ وإذا أردنا أن نتخرج نخرجه مخرج البيع ونلبس الباطل صورة الحق، «يخادعون الله

والله خادعهم»، «ومكروا ومكر الله والله أشد الماكرين».

أيها المسلمون!

إن اتفقنا وأصلحنا أنفسنا وأخذنا بأحكام ديننا، عادت السعادة إلينا، وزال كابوس الاستعباد عنا.. وإلا.. فاعلموا أنا وأنتم سنهلك ما بقينا في شقاق، وسنتدهور في هوة الدمار والبوار وخراب الديار.

تربية النشء

أيها الناس!

أولادكم ودائع الله عندكم.. الأولاد والشبان اليوم رجال الغد، هم للبلاد والبلاد لهم، فهل تحفظونهم؟ أم تفسدون أخلاقهم كما فسدتم أنتم؟!.. الصغير ينشأ على أخلاق الكبير فإن رآه يشرب الخمر فهو لا محالة يشربها. أتريدون منه الصدق وأنتم تكذبون؟ أو تلتمسون منه العفة وأنتم تفسقون؟!

أيها الناس!

لا تستطيعون تربية أولادكم إلا بتربية أنفسكم، وما أحسن ما قال بعض العارفين: الوعظ الذي لا يعادله نفع ولا يمجه سمع، ما نطق به لسان الفعل وخرس عنه لسان القول.

عظوهم بأفعالكم قبل أقوالكم. تأدبوا - أيها الناس - بآداب الله وكتابه وبسنة نبيه، فوالله ما ترك من خير إلا وارشدكم إليه ودلكم عليه! ولكنكم ضيعتموه فضعتم، وخذلتموه فخذلكم.

أيها الناس!

اتحدوا اتحاداً صحيحاً صريحاً. قتلتنا المجاملات، وأهلكنا عدم المصارحة.. كن صريحاً تكن مريحاً.

أيها الناس!

ربما أكون قد اطلت، والاطالة توجب الملالة، والملالة تجر إلى الألم.. وبعض الذي قلناه كافٍ لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد. أما من لم يكن له قلب ولا حس، فلا يجدي فيه القول والتقريع مهما طال وكثر.

وفي الختام: نسأله تعالى أن يصلح شأنكم. فإن صلحتم صلحتم لأنفسكم، وإن فسدتم فالفساد عليكم.. ولكنا نتألم لكم، ونريد لكم كل خير وصلاح، وتقدم ونجاح. والله ولي ذلك كله، والسلام عليكم.

الخطبة الثانية

الخطبة التي القاها سماحته في «جامع المنارتين» بالبصرة في ١٠ ذي القعدة ١٣٥٢ هجرية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال سبحانه في كتاب المجيد وفرقانه الحميد: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

هذا نص القرآن المجيد وآية منه، وما أعظمها. يقول تعالى: ﴿ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

أيها الإخوان الكرام!

تعلمون - وحقاً تعلمون - أن البلاد، منذ بدء الخليقة، ما زالت تسعد وتشقى، وتسفل وترقى، وتجمع باطلاً وحقاً.. وليست سعادة البلاد بطيب هوائها، وعذوبة مائها، وبهجة خضرائها ونضرائها، بل سعادة البلاد الحقيقية هي كرم أخلاق أبنائها، ومعارف سكانها، بعوارفهم ومعارفهم، بعلومهم وآدابهم.

سعادة البلاد بابناء البلاد، وسعادة الأبناء بالعلم والسداد، وينابيع

الثروة والاقتصاد، وكل ما يجلب العز والسعادة، ويوجب المنعة والاستقلال. وللبلاد في ابان تأسيسها، ومبادىء وضعها وتكوينها، مناسبات ومقتضيات، تعين على سعادة أبنائهم وارتقائهم إلى أوج المجد.

الكوفة والبصرة

لما بزغت شمس الإسلام، وانجلى النور المحمدي فمزق ظلمات الجاهلية، ما انفرط العقد الثاني في التاريخ حتى تكون مصران عظيمان من أمهات المدن الإسلامية، ولم يكن لهما نظير في تلك العصور: أما الأول فهو «الكوفة» تأسست سنة ١٦ من الهجرة، مصرها واختطها سعد بن أبي وقاص الصحابي الكبير والفاتح الشهير، والمصر الثاني «البصرة» أسسها قرب ذلك التاريخ عتبة ابن غزوان. وكلا المصرين تأسساً بأمر الخليفة الثاني وما مضى عليهم خمس أو ست سنوات حتى اتسعت منهما الدائرة وازدهرتا بنوادي العلم والأدب وازدحمت عليهما الوفود لارتشاف العلم والمعارف من منهلهما العذب، وبالأخص البصرة، فإنها بعد بضع سنوات أصبحت مطمح انظار رجال العالم، وإليها الهجرة وشد الرحال من كل حدب وصوب. وكان يقال لها «قبة الإسلام»، و«خزانة العرب»، و«كناية الأدب». وغب وقوع الحادثة التاريخية الشهيرة «وقعة الجمل» دارت أدوارها، وطابت معايشها، وتوفرت أسباب الراحة والعمران فيها، وأصبحت معهداً علمياً إسلامياً. وفيها نشأ «المربد»، وهو أول معهد إسلامي ومدرسة كبرى، وقد تخرج منه فطاحلي علماء العربية ومؤسسوا العلوم الإسلامية.

هذه هي البصرة - أيها الإخوان - وهذا مربدها المشهور.

من تحت هذه السماء، ومن جذور هذه التربة، ومن سائل هذا الأثير الجوي نشأ أبو الأسود الدؤلي مؤسس «علم النحو» والخليل بن أحمد

مؤسس «علم العروض» وصاحب «كتاب العين»، ومسلم بن معاذ مؤسس «علم الصرف» و«البيان» و«المنطق» - أعني المنطق العربي لا اليوناني - ... هؤلاء الفطاحل الثلاثة هم مؤسسو علوم الإسلام - العلوم التي يتوقف عليها فهم الكتاب والسنة، ويستقى من ينابيعها نطف الأدب - وإليهم كانت تشد الرحال، ومن حوزة دروسهم تتخرج الرجال.

من هذه التربة والماء، وتحت قبة هذه السماء، نبعت تلك العلوم، وتبرزت أولئك الأساطين، وتخرج عليهم الأعلام المشاهير، كسيبويه، والكسائي، والأصمعي، والفراء، وخلف الأحمر، وكثير من أمثالهم.. كما أن منها نشأت طرائق الزهد والتصوف والسلوك، وكان أول من أظهرها أو تظاهر فيها في القرن الأول من قرون الإسلام «الحسن البصري» و«فرقد السنجي» واضرابهم، بل ومن ههنا نبغت أول طائفة بحثت في العقائد، وخاضعت في المادة، ونظرت في الطبيعة وما بعد الطبيعة وخواص الواجب والممكن، وهي طائفة المعتزلة، وفي طليعتهم «واصل بن عطاء» و«أبو هاشم الجبائي» وإخوانهم، وههم من أهل هذه البقعة أيضاً.

فأنت ترى أن من هذه الأجواء والأرجاء قد انبعثت أشعة جل العلوم الإسلامية إلى سائر الآفاق.

ثم تعاقبت عليها الخطوب، وتداولتها المحن كسائر بلاد الله، ولكنها - بحمد الله - ما خلت في وقت من الأوقات من العلماء والصالحين، الذي يرشدون إلى سواء السبيل، ويكونون للحق خير دليل. ولا غرو أن تمتاز هذه البلاد بتلك المزايا والمآثر، لما خصها الله به من المزايا الطبيعية والموقع الجغرافي الذي لم يتسن لغيرها من البلاد.

وصايا وعظات

يا أهل البصرة!

هذان الرافدان يأتيان إليكم من أقاصي جبال أرمينيا. . يحييانكم ويعطيانكم درساً يرمزان فيه إلى أمر مهم تعود فائدته إليكم. . فهل علمتموه، أم هل اطلعتم على كنهه وسره؟

يشيران إليكم بفائدة الاجتماع، وضرورة الاتفاق، وبركة الانضمام والوحدة. . يقولان لكم: ما اتيناكم إلا بعد أن امتزجنا واتحدنا بحيث لا يمتاز كل واحد منا من أخيه!

خرجنا من منابعنا مختلفين متباعدين، وقبل أن نتصل ببلادكم ونأتي إليكم اتحدنا واقترنا. . . إلا هكذا فاتفقوا واتحدوا.

وهذه إحدى الميزات التي خص الله بها بلادكم دون سائر البلاد. . . هذا البحر إلى جنبكم، وهذا البر الفسيح مفتوح أمامكم. . البحر يعلمكم اللين المرونة، يعطيكم الصفاء والملاحة، والبر يحملكم على الرزانة والقوة، وسعة الصدر والثبات.

يقول «الخليل» من أبيات في وصف البصرة:

بـر وبحـر احـاطـا مـن جـوانبهـا فالضب والنون والملاح والحادي

«الحادي» لسفن الصحراء، و«الملاح» لسفن الماء.

تسورت بلدتكم هذه باسوار طبيعية - النهر العظيم وشط العرب والبحر الزاخر والنخيل المشتبك - فهل تجدون بلداً في العراق أو غيره تفوقها أو تساويها؟ أفلا يحق ويجب عليكم أن تصونوها وتحصنوها بالأخلاق الفاضلة والعلوم العالية، والاتفاق الصحيح والوحدة الحقة، لا وحدة الخداع والمكر؟

اتعرفون ما هي الوحدة الحقة؟.. يقول العباس بن الأحنف أو غيره:

أقول لورقاوين في فرع نخلة ... وقد طفل الامساء أو جنح العصر
وقد بسطت هاتي لتلك جناحها ... ومد إلى هاتيك من هذه النحر
ليهنكما إن لم تراعا بفرقة ... ولم يسع في تشتيت شملكما الدهر

اتعلمون أيها الكرام ما يقول هذا الشاعر وما الذي يوعز إليه؟

اتعرفون ما المراد بالحمامتين والورقاوين التي تبسط إحداهما جناحها للأخرى رحمة ورأفة، ووئاماً واتحاداً على فرع نخلة؟

هما طائفتان من المسلمين، تجمعهم لغة واحدة، وكتاب واحد، وقبلة واحدة، وأهل وطن واحد، وهم في الحسب والنسب والآباء سواء... أفلا يجب أن يكونوا كذينك الحمامتين المتآخيتين؟!

منح الله البصرة مزايا جليلة وخواص كريمة، امتازت بها على سائر المدن.. فهل تحفظون هذه الكرامة وتشكرون هذه النعمة وتتحدون وتتفقون حقاً كما أوصى الله في كتابه الكريم؟؟

نحن قلنا حتى مللنا، واسمعنا حتى سأمنا... أسمعنا الدعوة إلى الوحدة والاتفاق، وقلنا للمسلمين: إن الذي يقتلكم، ويفرق جمعكم، ويخمد جذوة عزائكم، ويجعلكم - بل جعلكم - اذلاء صاغرين للأجانب، هو هذا الخلاف والشقاق الذي تغلغل وتوغل فيكم... أهبنا بالمسلمين، ودعوناهم إلى ما دعاهم إليه الله ورسوله.. ولكن هل وجدنا أثراً، أو أصبنا للأمة نفعاً أو دفعنا ضرراً؟.. كلا!

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾، «لقد اسمعت لو ناديت..»، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا﴾...

منح الله - سبحانه - البشر عقولاً بها امتازت عن البهائم ليميزوا بها الحسن من القبيح، والخير من الشر، والنافع من الضار. . فيا ترى هل بقي شك أو شبهة لأحد في ضرورة الاتحاد والاتفاق؟. وإن العدو ما كادهم في بلادهم إلا بما يدسه فيما بينهم من سموم النفاق، حتى استفحلت بليته، وأمكنت فريسته، على أوهام فارغة، وأمور فاشلة، لا حقيقة لها ولا وجود ولا أثر ولا عين.

خلق الله - سبحانه الكائنات من عناصر وأوليات، ولكن كل عنصر من عناصر تلك الأوليات لا تترتب عليه بانفراده فائدة ولا تظهر له في نفسه منفعة. . حتى ينظم إلى أمثاله، ويتحد مع أحزابه، ويكون - بعد الانضمام والتركيب - شيئاً وحداً له آثاره الخاصة وفوائده المعينة. أما مع الانحلال والتفكيك، فلا فائدة فيها ولا كيان لها.

هذه الكائنات بأجمعها، من أرض وسماء، وإنسان وحيوان، ونبات وجماد. . كانت أجزاء متفرقة وعناصر متباينة، ثم جمع الله جزءاً إلى جزء، وضم بعضها إلى بعض، على نسب مخصوص ومقادير معينة، حتى حصلت لكل كائن وحدة بها ظهرت فوائده وبرزت في الوجود آثاره، وحال الكل حال الابعاض، وحال الأمم حال الأفراد، فكما أن الفرد عدة أجزاء متباينة، من دم ولحم وعظم وأعصاب، قد انضم بعضها إلى بعض حتى حصلت لها وحدة تجمعها من الروح الإنساني أو الحيواني، فصار شخصاً ماثلاً، وكائناً كاملاً، يضر وينفع، ويعطي ويمنع، وله آثاره وخواصه. . فكذلك الأمة إذا انضم بعض أفرادها إلى بعض، وحصلت فيها روح واحدة تجمعها، وتجعلها تحس بحس واحد، وتتحرك وتسكن بشعور واحد. . . هناك تكون أمة حية تحفظ كيانها، وتشيد بين الأمم أركانها، وتصون عزها من الذل والاستعباد، وتصلح ما يطرأ عليها من الخلل والفساد.

واعلموا - أيها المسلمون - أننا لو ملأنا آفاق السماء وفجاج الأرض عجيجاً وضجيجاً ودعوة إلى الوحدة، باقامة البراهين الدامغة والحجج البالغة.. لم يجد ذلك شيئاً ما لم تتحقق فيكم تلك الروح الواحدة، وذلك الحس والشعور الذي يدفعكم إلى تناصف بعضكمْ لبعض، وعدم استئثار بعض على بعض. وتلك الوحدة المنشودة التي تتكون بها الأمم وتستدر بها السعادة والنعم ليست هي لفظاً وقولاً وخداعاً ومكراً، ولا تثمر تلك الثمرات ولا تترتب تلك الغايات إلا على الأعمال الجدية، وخلوص النية، والولاء الصريح، والاخاء الصحيح، و«أن يحب الإنسان لأخيه ما يحب لنفسه». وقد كانت هذه الكلمة البارعة والوصية الجامعة، من أهم وصايا رسول الله لأمته التي لا يزال يقرع بها أسماعهم ويكررها عليهم، ولكننا قد اضعناها وحفظها الأجانب. أخذوها منا وتغلبوا بها علينا، ونحن أحق بها وأولى...

فرض لازم وحتم واجب على كل مسلم أن لا يسأل إنساناً إلا عن الشهادتين وجامعة «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، فإن وجدها لا يسأل عن شيء بعدها.

وكان المسلمون، أيام الفتوح والتوغل في البحار والأمصار، إذا سئل أحدهم عن نسبه وقبيلته، وقيل له: من أبوك؟ يقول:

أبـي الإسـلام لا أب لـي سـواه إذا افتخـروا بقيـس أو تميـم

اعوزنا واضربنا عدم الثقة بالله، وأنا لا نعتقد اعتقاد اليقين بجزاء ولا حساب ولا كتاب، وأن مصيرنا إلى الله، وأن الأمور كلها بيده وفي مشيئته، وقد جعلها منوطة بأسبابها.

أمم الغرب - على الغالب أيضاً - ليس لها ذلك الاعتقاد الراسخ، ولكن كبرت نفوسهم، وتعاظمت همتهم، فانبعثوا إلى الأعمال الجدية

لنيل العز والشرف.. وبذلك تغلبوا علينا. ونحن - مضافاً إلى لزوم طلب تلك المعالي والعز الذي كان لآبائنا - نعتقد بالجزاء ودينونة الحق في دار القرار.. وكلها دواعٍ وبواعث يجب أن تدفعنا إلى الم شعثنا، وتهذيب أخلاقنا، واسترداد تراث سلفنا.

أمر هائل، وخطب فظيع، تحار منه العقول، وتطيش له الألباب... الحال الذي صرنا إليها لو حللناها تحليلاً كيمياوياً، ونظرنا كيف كنا وكيف أصبحنا، وإلى أي حد من الشقاء بلغنا، وكيف اتفقنا على أن نعين عدونا، ونخرب بيوتنا بأيدينا.. إذاً لانشقت المرائر، وتفطرت القلوب. والخطب الأفظع: إن الخطب والمقالات، والنوادي والاجتماعات، تذهب هواء في شبك، ولا تؤثر شيئاً من الأثر المطلوب.

يا أهل البصرة!

كنت أخبرتكم: أن العلوم الإسلامية انبثقت من بصرتكم هذه، وفيها تشكل «المربد» الذي كان كأول معهد علمي إسلامي، ومنها تخرج الاعلام، وعظماء الإسلام... أفلا تنهض بكم الغيرة والحمية ثانياً فتستعيدوا ذلك المجد الباذخ؟! أفلا تثور فيكم النخوة فتتقدموا أمام المسلمين بنهضة شريفة، فتجمعوا كلمتكم، ولا تدعوا مجالاً لتأثير الفوارق المذهبية في صدع وحدتكم؟!

أفلا تنهضوا نهضة آبائكم الكرام، وتنبذوا الحرص على حطام هذه الدنيا الدنية، ولا تحتذوا ما تخيله لكم الأوهام الشيطانية؟!

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

العلم والعمل

لا تنهض الأمة وتطير في أجواء المعالي إلا بجناحي العلم والعمل، والعمل موكول إلى العلماء، وهم القادة والسادة، والتعليم فرض محتم عليهم، وما أخذ الله على الجهال أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا.

دعائم السعادة في الأمم ثلاث: تعليم العلماء، وعمل الأمة، وعدل الحكومة... فإذا قام كل واحد من هؤلاء بواجبه عمرت البلاد وسعدت العباد.

العلماء إذا قاموا بوظائفهم، وعلموا غيرهم، ورشدوا ونصحوا واخلصوا لله في أعمالهم ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾، فقد كتبوا في ديوان الله من الامناء والسعداء الآمنين. وإن لم يعملوا أو لم يعلموا فتعساً لهم! وقد كتبوا في ديوان الله من الأشقياء الخائنين، فإن العلم وديعة الله عند العلماء للتعليم والعمل، لا للاستطالة والكبرياء، والجدل والمراء، والعجب والرياء.

والأمة إذا تعلمت وعملت وقبلت نصائح العلماء وارشادهم، فقد احرزت حظها من السعادة، وانقادت لها أزمة الخير.

والحكومة إذا قامت بواجبها نحو الأمة، واخلصت للمصلحة ونصحت للرعية، وعلمت حق العلم أن الحكومة أجراء للشعب، تأكل من كد يمينه وعرق جبينه، فالواجب عليها أن تخدم الشعب باخلاص، ولا تتطاول عليه ولا تجحف به، ولا تزاحمه حتى في بلغة معاشه ولقمة قوته، وأن تقيم فيه موازين العدل والقسط، والواجب أن تخلص الدولة في خدمة الرعية، وتنقاد الرعية للدولة، وتخضع لقوانينها العادلة، وتنعقد ما بينهم

عرى الصفاء والمجد، حتى يكونوا يداً واحدة وقلباً واحداً. . . هنالك ترقى البلاد، وتسعد العباد، ويعيش كل فرد من المجتمع عيشاً اجتماعياً هنياً. . لا كالحال الذي نحن فيه منذ اليوم، حيث أصبح كل فرد منا يعيش عيشاً فردياً. والإنسان مدني بالطبع، ويستحيل أن يعيش إنسان بانفراده، فإذا انفرد عن المجتمع وانقطع، فليس هو بإنسان، بل وحش من الوحوش!

نعم! نحن في صورة الظاهر مجتمعون، ولكن ما أشد التباين ما بين الإنسان وأخيه، وبين المرء وقريبه، وبين الشخص وجاره. . . وهكذا لا تجد شخصين متفقين على جامعة صحيحة ورأى واحد. فنحن حقيقة كما قال - جل شأنه -: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾. ولا تسعد أمة ما دامت بهذا الحال أبداً.

التشتت، واختلاف الآراء والأهواء، وفقدان الزعيم والقائد المخلص الذي يجمع الأمة وتجتمع إليه. . هو السبب الوحيد في هلاك الأمة:

إذا ما أراد الله اهلاك أمة رماها بتشتيت الهوى والتخاذل

ما وجدنا أمة صعدت إلى أوج المجد فسعدت وهي متفرقة متخاذلة. ما كان ذلك أبداً ولا يكون. كما أنه لا يستقيم أمر أمّة بغير زعيم قائد يقودها إلى مناهج الهدى وسبل الخير. والأمم إما أن يكونها الزعيم، أو تكون الزعيم لها. والضرورة لها على كل حال. ومن حكم العرب ومحاسنها القديمة العالية قول الأفوه:

لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

عليكم أيها الناس بالركون إلى العلماء العاملين والأخذ منهم، فإنهم بمعونة الحق لا يقودونكم إلا إلى الهدى، ولا يحملونكم إلا على جناح النجاح. ولعل ما حل بكم من النكبات والرزايا من بعض أسباب التجافي

عنهم والتباعد منهم، وإلا لعرفوكم أن هذا التخاذل يؤدي إلى سوء العواقب، وأن لا ثمرة بهذه الخطة ولا سلامة في هذا الطريق. . .

إن كنتم تريدون سعادة وتاريخاً مجيداً كما كان لأسلافكم فلا سبيل إلى ذلك إلا بالاقتداء بهم، والسعي وراء العمل الجدي والتخلق بالأخلاق الكريمة.

أيها الناس!

لا ينال الشرف والمجد وعز الاستقلال الصحيح بالأماني والأباطيل. اتحسبون أن الأجانب بلغوا ما بلغوا بمثل هذه الأحوال التي نحن عليها؟ قد أبى الله - سبحانه - أن يجري الأمور إلا بأسبابها، وأن تؤتى البيوت إلا من أبوابها. وجعل الجد والعمل هو مِلاك الفوز والنجاح ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾.

عودوا - أيها المسلمون - إلى ما كانت عليه أسلافكم. . من الأخلاق الكريمة، والعفة والنزاهة، والصدق في القول والفعل، والسعي وراء العمل النافع، ومعرفة الوقت الثمين.

نحن نقتل الوقت الذي هو عبارة عن عمرنا العزيز ضياعاً في الأباطيل، نصرفه في كل رذيلة ويمكننا أن نكسب به كل شرف وفضيلة.

سوادنا الأعظم يصرف عامة وقته في المقاهي والملاهي والسينمات والمواخير.

مسارح اللهو بالناس معمورة مغمورة والمساجد نوادي العلم مهجورة. . تجد تلك مكتظة بالخلائق والمساجد في مواقيت الصلاة خالية خاوية. أليس هذا مما يقرح قلب المؤمن الغيور؟ أو يوقد في فؤاد المسلم شعلة الآسى والأسف؟

العلم العلم أيها الناس! فإن العلم أول مبادىء السعادة. ففي

الحديث: «من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أراد الدنيا والآخرة فعليه بالعلم».

ثم العمل العمل! فإن العلم بلا عمل كالسراج في يد الأعمى، والعالم بغير عمل كالجاهل الحائر، بل في الحديث: «أن الحجة عليه أعظم، والحسرة له الزم، وهو عند الله ألوم».

ثم الاخلاص الاخلاص! فإن الأعمال كلها بغير اخلاص هباء بل حسرة وندامة. اخلصوا لله - أيها الناس - في أعمالكم تنالوا سعادة الدنيا والآخرة. صبروا أنفسكم عن هذه الشهوات الفانية من غير طرقها المشروعة، فإنما هي أيام قلائل وظل زائل «ألا كل شيء ما خلا الله باطل».

أين الذين طالت أعمارهم فعاشوا الآلاف من السنين، عمروا بها الدور، وشيدوا القصور، وسخروا العباد، وفتحوا الامصار، واحتلبوا درة أفاويق الدنيا واخلاف نعيمها، ثم اصبحوا هباء منثوراً كأن لم يكونوا شيئاً مذكوراً.

ثم اضحوا كأنهم ورق جف فألوت به الصبا والدبور

فما لنا نحرص على الدنيا هذا الحرص المجهد ولا نحرص على هذا العمر القصير فلا نصرفه بالأباطيل والأعمال التافهة؟

إن الله - سبحانه وتعالى - رأفة بعبادة واتماماً للحجة عليهم يبتعث في البرهة بعد البرهة رجالاً مخلصين، وأطباء ماهرين عارفين بأمراض المجتمع وعلله وأدوائه، ينبهون ويرشدون، ويبثون الحكم والنصائح التي فيها شفاء للناس، فإن أخذوا بها فازوا، وإن تركوها هلكوا. ولعل الله - جل شأنه - دفعني في مواقفي المشهودة إلى القاء هذه الكلمات وأمثالها لاتمام الحجة، وارجو أن تسعدوا بها، وأن تكون نعمة لا نقمة عليكم.

الله الله في بلادكم! الله الله في أعراضكم! الله الله في أولادكم!.. لا

تنهمكوا بهذه المدنية الزائفة، ولا تنغمروا بهذا التيار الجارف من هذه السفاسف والزخارف التي ما جاؤوا بها إليكم إلا ليهلكوكم ويفسدوا أخلاقكم ويمتصوا دم حياتكم.

الشباب

أيها الشباب الانجاب. . . ! أيها الأولاد الامجاد!

أنتم رجال الغد وإن كنتم أبناء اليوم. . . عليكم اليوم العمل، وغداً لكم المستقبل.

أيها الشبيبة والأولاد! . . . بل أيها العيون والأكباد! . .

أنتم للبلاد وهي لكم. . انهضوا نهضة شريفة تعيدون بها مجد أسلافكم. تعاشروا بعضكم مع بعض بروح الحنان والرحمة والآخاء والمودة، وصكوا جباه المستعمرين الذين يريدون استعبادكم بصخرة الانكار والشدة والقوة. كونوا كاوائلكم «أشداء على الكفار، رحماء بينهم».

الشباب المثقف هو السلاح الجاهز للأمة وقوتها النارية وعدتها في الشدائد، ولكن يجب أن تسيرها حنكة الشيوخ في تجاربهم، وتنتظم في عقول الكهول وأحلامهم، كي ترتسم فيها فضيلة الشجاعة والاعتدال، وتصونها عن الوقوع في طرفي الافراط والتفريط من رذيلتي الجبن والتهور.

أهم ما يجب ويلزم على الشباب أن يعتصم بالعروة الوثقى من النزاهة والعفة، ولا يفسح لنفسه مجالاً للركض وراء الشهوات فتستدرجه إلى مداحض الفسوق وبؤرة المفاسد، فيخسر شرفه وعزه، بل يخسر نفسه وتخسره الأمة.

مكائد المستعمرين

وكان من أحد مكائد المستعمرين اذاعة الملاهي واباحة الخمور ومعدات الفسق والفجور في بلادنا لتلك الغاية، وقد ظفروا بما دبروا، وبلغوا ما ارادوا من استعباد المسلمين.

اطمح بطرفك - أيها المسلم - حيث شئت، من شرق الأرض وغربها، فهل تجد مملكة إسلامية أو أمة من المسلمين لم تقبض على نياط أحشائها براثن الاستعمار، ولم تنشب في أعماق فؤادها مخالب الاستعباد، ولم يستول على كل مقدراتها الأجانب؟... فيكونون هم الآمرون والحاكمون، بل الملوك والمالكون.. والمسلمون لهم خولاً وعبيداً. أفلا يحق لنا البكاء على هذه الحال، لولا أن البكاء «تكرم عنه عيون الرجال»؟!... ولكن أين الرجال؟ وأين الأبطال؟ وأين الشمم والشرف؟.. ذهب كل ذلك من المسلمين «ذهاب أمس الدابر». فعلى الإسلام والمسلمين السلام!

نحن الذين كنا نملك الدنيا أصبحنا مملوكين ولا نملك شيئاً من الدنيا. أفليس هذا من اسوأ العار؟

هل تجدون أمة عربية في اقطار الأرض مستقلة بحقيقة الاستقلال وليس للأجانب عليها سلطان، حتى البدو والقبائل الرحالة في البوادي وأعراب القفار والصحاري... لماذا كل هذا؟ أتحسبون أن ذلك لقصور في عقولنا، أو نقص في جوارحنا، أو خلل في شيء من حواسنا؟.. كلا وعزة الله! لا نقص فينا حسب المواهب الفطرية، ولا زيادة لهم عينا، ولكنهم زادوا علينا في الجد والنشاط، والاستهانة بهذه الحياة في سبيل الشرف، وطرح الفوارق الشخصية... فأصبحت كل أمة منهم كشخص واحد. بهذا تفوقوا علينا، وإلا فنحن أدق فهماً وأرق طبعاً، واسمى خلقاً

وخلقاً، ومنا أخذوا، وعلينا تظاهروا واستظهروا.

أفليس بعد هذا حرام عليكم أن يتعادى أو يعتدي مسلم على مسلم، أو يتنابذ أخ مع أخيه؟! أو ليس من الحتم علينا أن ننتظم تحت راية واحدة، لا فرق بين عربي ولا عجمي ولا هندي ولا تركي، ونكون إخواناً كما أراد الله منا أن نكون؟

واجبنا

إن هذه صدفة من الصدف، ونادرة من نوادر الدهر، إن رمت بي الأقدار والأسفار إلى بلادكم، وتبوأت مقامي هذا منكم، ارشدكم إلى المناهج السوية، والقي عليكم هذه النصائح بلهجة قوية، وأسلوب بسيط، خالٍ من التكلف والصناعة... حقاً إنها لفرصة ثمينة، عسى أن تغتنموها ولا تضيعوها، ولعل لها الاثر النافع، والثمر اليانع. فكم خطب الخطباء، وكم كتب الكتاب اجتهد المصلحون، نعم المعري يقول:

كم وعظ الواعظون منا ... وقام في الناس أنبياء
فانصرفوا والعناء باقٍ ... ولم يزل داؤك العياء

ولكن الله - يقول: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾. ونأمل من لطفه - تعالى - أن لا يضيع مساعينا فيكم، فأنا لا نتكلم إلا عن شفقة واخلاص، وليس لنا أدنى منفعة تعود إلى شخصنا. نعم! فائدتنا العظمى، واقصى أمانينا، ومنتهى رغباتنا: أن نراكم أمة حية، متحدين جميعاً، وعاملين على اعادة مجدكم السابق. فإن اتفقتم وفقتم، وإن اتحدتم سعدتم. وإلا فعسى الله أن يلطف بكم ويأخذ بأيديكم إلى مهابط الرحمة ومساقط العناية... وإن كنا على رصين علم من أنه تعالى لا يلطف بعبده حتى يجد من العبد توجهاً واقداماً، وعزماً وهمة. لا يعطف الرب على عبّاده حتى يتعاطف بعضهم على بعض ويرحم بعضهم بعضاً.

كان رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفس محمد بيده! إنكم لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تتحابوا، ولن تتحابوا حتى تجتمعوا ويعطف بعضكم على بعض».

وبمثل هذه التعاليم، وبمثل هذه الفضائل، بلغ أصحابه ما بلغوا، وتغلبوا على أقوى مملكتين في ذلك العصر - مملكة الفرس والروم - في أقل من عقدين، مع قلة العدة والعدد، وأكثرهم أعراب أميون، لا حضارة عندهم ولا صناعة، ولا علوم ولا فنون، ولا أسلحة منظمة ولا قوة... ولكن كانت قوة الإيمان واليقين بالله والثقة به أعظم سلاح واكرم جناح يتسابقون إلى رضوان الله في الآخرة وشرف العز والكرامة في الدنيا.

فمن تدبر في أحوال تلك الفئة، وكيف كانوا وكيف تقدموا، عرف جلياً ما للأخلاص والصدق، وما للجد واحتقار هذه الحياة الدنيا، من عظيم التأثير والنجاح الخطير، وأن المدار في الغلبة ليس على كثرة العدد وتوفير العدة وقوة السلاح، وإنما المدار على صحة الإيمان وقوة العزائم وصدق النية ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ فبلغهم الله ما تسامت نفوسهم إليه.

هذه عبر باهرة.. ولكن أين المعتبرون؟

نقرأ الكتب، وتمر بنا الحوادث، ونحن في غمرة ساهون.. ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. تمر بنا الحوادث، وتسنح الفرص، ولا نأخذ الفائدة منها. وتضييع الفرصة غصة. يمر الكلام على آذاننا ولا يمس ولا طرفاً من قلوبنا، يمر علينا وهو منطلق كالهواء. فلا يؤثر في أحوالنا وأعمالنا شيئاً. استولى الخور والفشل وأسعف على كل مشاعرنا وجوارحنا، فجفت العزائم وماتت الهمم.

الغيرة والهمة العالية أساس كل خير ومفتاح كل نجاح، فإذا استنهضتم همتكم وحفزتم غيرتكم بلغتم ما تريدون، ولكن لا تجتمع

الغيرة والانهماك في الشهوة أبداً. احذروا هذه المدنية اللماعة الخداعة الزائفة الجائفة، التي ما جاؤوا بها إليكم إلا لسلب شرفكم وغيرتكم فضلاً عن سلب أموالكم. أتحسبون أن السينمات في بلادهم هي على هذا النحو الذي في بلادكم؟... كلا! فإنها في بلادهم منظمة على أصول علمية وغايات أخلاقية ومشاهدات فنية... على العكس من التي عندكم المفسدة لاخلاق فتيانكم وفتياتكم. أين العقول الصافية والقرائح الوقادة التي تدرك من كل شيء مغزاه ولا ينخدع بالظواهر والمظاهر؟

أيها الناس!

انصروا الله ينصركم، واحفظوه يحفظكم. اغضبوا لحرمات الله، وغاروا لشرائع الله.

الله أنزل هذه الشرائع والأحكام وشرع الحلال والحرام، لا ليتعاظم في ملكه ويتوقر في سلطانه، ولا ليجلب إليه نفعاً أو يدفع عنه ضراً، وإنما الغرض من تلك الأحكام والنواميس صلاح أبدانكم وتربية أجسادكم وتثقيف أرواحكم وحفظ جامعتكم وتنظيم أمور معاشكم ومعادكم، كي تكونوا أمة قوية حية، تستحق البقاء والبركة والنعماء، وتسلكوا سبيل الأمم الراقية التي كانت قبلكم... ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾.

شرع الله الشرائع، وأنزل الكتب، وبعث الأنبياء.. كل ذلك رحمة وعناية بالخليقة، ولانقاذهم من الظلمات إلى النور وسوقهم إلى السعادة الأبدية. وهو - جل شأنه - لا تنفعه طاعة من اطاعه، ولا تضره معصية من عصاه.. ولكن - مع ذلك - فإن تلك الأحكام والحدود والأوامر والنواهي هي محارم الله وحرماته. فمن شرب خمراً، أو أكل الربا، أو لعب قماراً فقد هتك حرمة الله، وبارز الله بالمحاربة والمخالفة، وكان الله خصمه. إذا شتم أحد الناس أباك وعشيرتك تغضب وتغار لأنه هتك

حرمتك ومس شرفك، ولكن إذا هتكت حرمات الله بشرب الخمور وارتكاب الفجور لا تغضب ولا تتأثر. وما ذاك إلا من أجل أنه لا علاقة لك مع الله - جل شأنه - فلا تغضب لغضبه ولا تغار على حرماته ونواميسه.

ما أنزل الله كتاباً أكرم وأعظم من القرآن، ولا شرع شريعة اجمع وانفع من شريعة الإسلام، ولا بعث نبياً أفضل وأكمل من محمد ﷺ... محمد سيد الأنبياء، وقرآنه شيد الكتب، وشريعته أفضل الشرائع... ومع ذلك فقد خصكم الله بها دون سائر الأمم. أفليس من الأسف الممض أن تضيعوها وتهملوها؟

كان رسول الله ﷺ يقول: «أنا حظكم من الأنبياء وأنتم حظي من الأمم». أما حظنا من الأنبياء فنعم الحظ ونعم النصيب، ولكن انظر كيف حظه منا؟ أنبعث له الخجل يوم القيامة ونطأطيء رأسه بين الأنبياء أم نرفع رأسه؟

فأي حظ له نحن!.. لو كنا نترسم سيرة نبينا وصحابته ونأخذ من الألف واحداً لسعدنا. ولكنا عكسنا الحقيقة ولبسنا الإسلام لبس الفرو مقلوباً. ولو نظرنا في أحوالنا لم نجد عندنا من حقيقة الإسلام أثراً. نعم! عندنا من الإسلام قشور خالية من اللب لا تصلح إلا لاحراقها في النار. إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى أسراركم. ولو عاد إلينا أباؤنا المسلمون الأولون وعاشرونا لانكرونا وما عرفوا من إسلامنا شيئاً.

هذا آخر كلامي فيكم وخطابي لكم، واستودعكم الله السميع العليم، واسأله أن يأخذ بأيديكم إلى حيث المجد والرفعة وسعادة الدنيا والآخرة، وارجو أن لا تكون نصائحي هذه كصرخة في وادٍ ونفخة في رماد، لأنها - كما يشهد الله - خرجت من قلب فلا تذهب هباء، والله يتولاكم بعنايته والسلام عليكم ورحمة الله.

الخطبة الثالثة

من خطاب سماحته يوم ١٦ ذي القعدة الحرام ١٣٥٢هـ في «جامع الحلة الكبير» وكانت احتشدت فيه سيول الجماهير حتى غص الجامع بالمستمعين، وتسوروا على السطوح وتعلقوا بشرفات الجامع، وكان يوماً مشهوداً. ارتجل سماحته، كعادته - رحمه الله - في جميع خطبه، مستهلاً الكلام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة على أسرار عظيمة، ومقاصد جليلة، ونكات دقيقة، وحكمة عالية... فأشارت إلى كيفية سعادة الإنسان ورقي المجموعة البشرية، وترتيب الأحوال والمدارج لتنظيم أمور سعادتهم ونظم معاشهم، وتعديل سلوكهم والمحافظة على كيانهم، ودرء الشر عنهم وصيانتهم من الوقوع في المفاسد والمهالك، فقال عز من قائل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

نعم! ارسلهم بالمعجزات الباهرة والدلائل النيرة والبراهين الساطعة على ثبوت رسالتهم، مؤيدين بالبينات الشاهدة على نبوتهم الناطقة

بحجتهم.. هذا كله حتى يتم دور النبوة، ويبلغ الأمر إلى بليغ الحجة. فإذا قامت على ذلك المعجزة وتمت الحجة، واعتقدت الناس بصحة رسالة الرسول ونبوة النبي، جاء حينئذٍ الدور الثاني، وهو وقت اداء النبي وظيفته وقيامه بواجبه، وتنفيذه لمهمته، المهمة المبعوث لها والناهض بثقل ابلاغها وتنفيذها، ألا وهي علاج البشر، وانقاذه من مخالب المعاطب، واصلاح فاسده، وتقويم معوجه، وبيان أنه بماذا يكون، وبأي شيء تتحقق تلك التأدية ويتنفذ ذلك الغرض.

نعم! لا يتنفذ ذلك الغرض، ولا تحصل الغاية المتوخاة، إلا بوضع قوانين آلهية، ونواميس ربوبية، يضمها كتاب جامع يتكفل بالنور الساطع والدواء الناجع.. وذلك الكتاب هو «القرآن» المبين، والحبل المتين والماء المعين، فقال - عز من قائل - ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

الكتاب هو ذلك القانون المشتمل على الداء والدواء، والمرض والشفاء، وعلى الوسائل والغايات، والأسباب والنتائج... الكتاب هو القانون الإلهي المتكفل لسعادة البشر، المشتمل على التعاليم الموجبة لصلاحهم، ونظم معاشهم، وحفظ حدودهم، وتوازن حقوقهم... الكتاب هو القانون الباقي للإنسان ما بقي الإنسان.

طيب!.. أنزلنا معهم الكتاب؛ أي القانون المتضمن للميزان الذي توزن به الحقوق والمعاملات بين الناس بعضهم مع بعض، بل المعاملات بين الخالق والمخلوق وبين الخلائق أنفسهم، وبه تتشخص وتتعين الحقوق الشخصية، كحق الوالد على ولده وحق الولد على أبيه، والزوج على زوجته والزوجة عليه، والأخ على أخيه.. وهكذا مما يستلزمه نظام البشر وحفظ هيئتهم الاجتماعية. وتختلف تلك الحقوق باختلاف الصفات والعلاقات، فوضع ذلك القانون الإلهي ميزاناً يعين حقوق هذا على هذا وحقوق الكل على الكل. هذا هو عين الميزان الذي توزن به الحقائق، وتقاس به الطرائق، وتعرف به الحدود والفوارق، ويقوم به القسط والعدل

بين المخلوق والخالق وبين الخلائق.

وبعد أن تم وضع هذا القانون وانتهى دور التشريع جاء «الدور الثالث» وهو دور التعلم والتعليم، دور العمل والتطبيق، فقال - عز شأنه - ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ يعني: ليقوموا بالعدل والتكافؤ، ويحفظوا بينهم التوازن، ولا يستأثر بعضهم على بعض فيحدث من الاستئثار العثار، ولا يستبدوا فينجر الاستبداد إلى الفساد. فإذا توازنت الحقوق، وتوزعت الفوائد، وتعممت المنافع، انتظم الأمر، وجرت مياه الصفاء، وازهرت منابت الراحة والهناء، ولم يكن ثمة شغب ولا لغب. نعم ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ والعدل بعد تعيين الحقوق وفرضها.

﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ هذا هو «الدور الرابع» من الأدوار التي اشتملت عليها هذه الآية الكريمة الربانية والجوهرة الإلهية من الأدوار المتدرجة والأطوار المترتب بعضها على بعض. نعم! هذا هو الدور الرابع، دور التنفيذ، بعد دوري التشريع والتطبيق. العلم وحده بلا عمل ولا تطبيق لا ينفع. التشريع بلا اجراء ولا تنفيذ لغو لا فائدة منه. فكأنه - تعالى شأنه - يقول: أيها الأنبياء؛ أيها المرسلون؛ أيها المصلحون؛ علموا البشر، ثقفوا المهج، قوموا المعوج، هذبوا النفوس، انشروا بين سائر الطبقات القوانين والتعاليم، عرفوهم حقوقهم، أوقفوهم عند حدودهم، فإن نجع ونفع وسمعوا واطاعوا فبها وأنعم، وقد فازوا وسعدوا، وإن لم ينفع الوعظ والإرشاد باللسان ولم يقتنعوا بالحجة والبرهان، فلا بد عند ذاك من «الچماغ»، لا بد من الحديد ذي البأس الشديد، لا بد من السيف. «الچماغ» هو القوة التنفيذية الوحيدة لعلاج البشر وتمشية العدل بينهم، وكم من الحديد ذي البأس من منافع للناس كما تحسون وترون. ويزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن (حديث شريف). القرآن لذوي الألباب والعقول، والسيف والسلطان للعنيد الجهول.

ثم عقب - جل شأنه - تلك الفقرات النيرات بالبينات العالية، حيث قال - وما اعلاها من كلمات - قال: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾.

وبيان ذلك: أنه - تعالى - يقول: أيها الناس! إنا أرسلنا إليكم الرسل بالمعجزات البينات أولاً، وشرعت لكم القوانين النافعة وأنزلت بها الكتاب ثانياً، وفرضت عليكم العمل والتطبيق ثالثاً، وجعلت القوة التنفيذية بعد التشريع رابعاً... والغرض من كل ذلك صلاحكم، ولكي انظر من ينصر الله حتى انصره، ومن يعز ديني وشرائعي حتى أعزه.

أيها الناس! هذه تعاليمي وشرائعي وحكمي وأحكامي، فمن ينصرني فيها فأنا له ناصر، ومن لا ينصر الله فيها فإن الله قوي عزيز... قوي على الانتقام، عزيز لا يضام.

هذا نظم الآية الشريفة على الاجمال، ولكن السر في ذلك كله - أي سر الحاجة إلى ارسال الرسل وانزال الكتب ووضع الميزان بالقسط ووضع الحديد ذو الباس الشديد - هو أن الله - جل شأنه - بسابق حكمته لما أوجد الإنسان في بدء فطرته جاهلاً لا يعلم شيئاً - وأي بلاء أبلى من الجهل - ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾.. نعم! وكما أوجده مفطوراً على الجهل كذلك أوجده محتاجاً فقيراً فاقداً لكل ما يحتاج إليه، حتى أن البهائم والحشرات، بل وكل مخلوق في بدء تكوينه وأول ظهوره، قد يكون خيراً من الإنسان.. يولد عارياً من كل شيء، من ساتر جسده، وماسك رمقه..

ثلاث غرائز وجدت مع الإنسان هي أصل كل بلاء عليه وخسران: الجهل، والعجز، والفقر. ولكن قد تداركته العناية وشملته الرحمة، فجعلت لكل واحد من تلك المهلكات الثلاث أسباباً لزوالها. وجعل الإنسان على مقربة استعداد واوفى عدة لعلاجها.

جعله مستعداً لعلاج الجهل بالعلم، ورفع العجز بالاقتدار، وازاحة الفقر بالغنى.. ولكن من طرق خاصة وأساليب معينة. وارسال الرسل، وانزال الكتب، ونشر التعليم، إنما هي لتعيين تلك الأساليب وتشخيص تلك الوسائل الموصلة إلى الغاية التي هي النجاة من تلك المهالك والفوز بالسعادة الأبدية.

أترون أن الله - تعالى شأنه - أوجد البشر رحمة أم نقمة؟.. كلا! ثم كلا.. إنما أوجده للرحمة والهناء لا للتعاسة والشقاء. فلما أوجدهم للعناية والرحمة فلا بد أن يهيء لهم الأسباب إليها، وحيث كانت تلك الخلال الثلاث هن أصول الرذائل وأمهات المفاسد والشرور، وأول فساد نشأ منها في دور الإنسان الأول هو قتل أحد الاخوين أخاه بدافع الغلبة والاستئثار، ثم اتصلت بعد ذلك المصائب وتوالت النوائب، حتى اتسع نطاقها وامتد رواقها، ولم تزل تتنوع وتتشكل باشكال مختلفة.. فمن غارات مشبوبة، وأموال منهوبة، ودماء مسفوكة وأعراض مهتوكة، وأصنام مقصودة، وأحجار معبودة.. وهلم جرا... فرايج شرور وولايج افك وزور.

نعم! والعناية الأزلية والألطاف الربوبية لم تزل معنية بالبشر، تنشر وتثقف، وتعلم وتهدي... ارسال رسل، بعث أنبياء، انزال كتب، وضع موازين، جعل قوانين، قصاص وديات، حدود وعقوبات... ولكن هل نفع كل ذلك أو نجع بعضه؟.. كلا!

اقام نوح بين ظهراني قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الهدى ويرشدهم إلى الطاعة، فماذا كانت النتيجة؟ وإلى أين بلغ الحال بعد دعوة شيخ المرسلين العريضة الطويلة؟.. نعم! كانت طوفاناً مريعاً وهلاكاً فجيعاً، وابادة لكل ذلك الجيل عدا قليل.

ثم تسلسلت الأنبياء على ذلك والناس لا تزداد إلا تعاسة وشراً، والعناية لم تزل تساوقهم وترافقهم، ولا تريد بهم إلا خيراً.

فلم يتهيأ للبشرية من يعطيها دواءها الحاسم ويعرف علاجها الشافي، ويسبر الغور ويبلغ المدى ويصيب الهدف ويطبق المفصل حتى جاء المثل الأعلى والمظهر الأتم الأجلى، سيد الرسل ومنقذ البشرية، النبي الأعظم محمد ﷺ، فعرف أن داء البشرية الوحيد ومنشأ كل الويلات والمفاسد هو حب الغلبة والاستئثار، حب الأثرة يدفع بالنفس إلى أن تطمح للحصول على كل أسباب التفوق، فيطغى بها شرر الشر والنهمة، فتركن إلى القوميات وتتعالى بالعنصريات.

الفارسي يقول: أنا من سلالة الملوك الأكاسرة. والرومي يقول: أنا من أولئك البطارقة والقياصرة. والعربي يشمخ بقومه أهل الكرم والشجاعة والفراسة والبراعة... وهكذا كل يريد أن يتفوق على أخيه ويستلب الحق من ذويه.

نعم! هذه هي بلية البشر الصماء وداهية المصائب الدهماء.. حب الغلبة يدعو أحدهم أن يسلب الآخر ماله ليكون أغنى منه، ويبتزه أرضه ليكون أوسع ملكاً منه، وينتزع نعيمه ورياشه ليكون اهنأ عيشاً منه.. وهكذا يسلبه كل شيء حتى يجعله بلا شيء ويكون له كل شيء.

نعم! جاء محمد ﷺ فمحا كل هذه العنعنات، وطمس عيون العنصريات، وسحق جماجم القوميات، فقال - وقوله الحق -: «كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فخر لعربي على عجمي». فضيلة الأسلاف لا تنفع الأخلاف حتى يكونوا أمثالهم. الكرم هو التقوى، والفخر بشرف الخلال لا بشرف العم والخال.

علاج ادواء البشرية وأمراضها أن ينضوي الجميع تحت راية واحدة وجامعة فذة، إلا وهي جامعة الانتساب إلى الله وراية أن لا إله إلا الله،

التي تجمع الهندي والتركي والعربي والرومي والفارسي، وتجعلهم إخواناً وعلى الخير أعواناً.

بث - سلام الله عليه - روح الوحدة، وحمل مشعل التوحيد، ونشر راية الإخوة بين البشر.. واجراها أولاً عملياً بين أصحابه، حتى بلغ الأمر بهم أن ملكوا بعده شرق الأرض وغربها بتلك الروح المباركة، التي جعلتهم في الأرض ملائكة يضحون كل شيء للإسلام ولا يفتخرون إلا بالإسلام. أهاب ذلك المصلح الأعظم صارخاً: «أيها الناس! قولوا لا إله إلا الله واسلموا تسلموا وتحصلوا على كل شيء».

ما ادرك أحد من الأنبياء ما ادركه من هذا السر العميق والمعنى الدقيق والعلاج الشافي.

جعل أصول التعاليم وقواعد التكاليف الأولية ثلاثة.. ويالله ما اعظمها وما أهمها!

أولها «العلم»: وهو أول تكليف كلف به البشر، وأول ما أوجبه الله عليهم ليرفع عنهم رذيلة الجهل المتوغلة فيهم ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾. ولم يزل النبي يحث على طلب العلم حثاً شديداً حتى قال: «إن أردتم الدنيا فعليكم بالعلم، وإن أردتم الآخرة فعليكم بالعلم، وإن أردتم الدنيا والآخرة فعليكم بالعلم». هذه التعاليم المقدسة وهذه الروح العالية لا تجدهما في غير شريعة الإسلام وكتابه المقدس. أسبر «التوراة» بأجمعها و«الإناجيل» بتمامها، هل تجد فيها شيئاً من هذه النفحات القدسية والرشحات الربوبية؟

نعم! أول تكليف على الإنسان أن يكون عالماً ولا يبقى جاهلاً. ثانيها أن يعمل بعلمه. وإلا فما الفائدة بعلمه؟... العلم بلا عمل ليس كما يقال كـ «الشجر بلا ثمر» بل كالشجر الذي يثمر ثمراً مرّاً، بلاء ووبال!

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «العامل بغير علمه مثل الجاهل المتحير

المستغرق في جهله، بل الحجة عليه الزم، والبلية عليه أعظم، وهو عند الله الوم».

وقال عليه السلام أيضاً ـ وهي من حكمه الرائعة ـ: «يا جابر! قوام الدنيا بأربعة: عالم يستعمل علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم، وغني لا يبخل بماله، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه.. فإذا لم يستعمل العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم، وإذا استنكف الجاهل أن يتعلم بخل الغني بماله، وإذا بخل الغني بماله باع الفقير آخرته بدنياه، ففسد العالم». يعني أن فساد العالم وعدم استعماله لعلمه هو السبب الأخير لفساد العالم، بل السبب الوحيد.

ثالثها «أن يعلم غيره»: وإلا لبطلت فائدة التكاليف ولم يحصل التهذيب والتثقيف... «ككلم راعٍ وكلكم مسؤول». ولو لم يجب تعليم الغير لبقيت الناس خاملة جاهلة. فكل إنسان يجب عليه أن يعلم ويعمل ويعلّم.

نعم! هذه هي أصول التكاليف ومهماتها وأمهاتها. ومما لا شك فيه أن حظ كل واحدة منها التقصير والاهمال منا، كما هو حالنا في سائر المهمات وضروريات السعادة والحياة.

لا طلب علم صحيح، ولا عمل بما نعلم، ولا تعليم للغير كما يجب!!

نحن نعلم ولكن نعبد الهوى ونعمل بما تبعثنا إليه الشهوات. كلنا عالمون وكلنا ضالون ومضلون... ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، فنحن ممن اضلنا الله على علم منا.

نحن عالمون وفي عين الوقت ضالون كأننا جاهلون. أتريد شاهداً على ذلك؟

هل بقي خفاءاً وستاراً أن الخمر من أشد الكبائر أثراً وأعظمها ضرراً وأكثرها بلاء وشراً. . نقص في الدين، نقص في العقل، نقص في الصحة، نقص في المال، نقص في النسل، نقص في كل شيء. . . ولم تزل طائفة من الناس غير قليلة تشربه في الجاهلية والإسلام حتى في عصر النبوة. ولكن الفرق أنه من ذلك العصر المتألق إلى عدة عصور كان يشرب سراً وفي الخفاء، رعاية للإسلام وصيانة للأحكام، أما في هذا العصر - ويا للأسف! - فقد صار يباع في الأسواق جهاراً وعلناً. . يباع في عواصم الإسلام كبغداد والشام ومصر وأمثالها، ويمر عليه المسلمون بلا إزراء ولا انكار، ويشربون جهاراً محاربة لله ورسوله ومعاكسة صراحاً لكتابه وقرآنه.

زجاجة الخمر الموضوعة في حوانيت بلاد المسلمين تقول للمسلمين: «أنا جئتكم من أوروبا على رغم آنافكم، لافقأ عيونكم، وأنشر عيوبكم، وانقص أموالكم، وأسلبكم عقولكم، وأحارب قرآنكم!. . القرآن يقول: «الخمر اثم فاجتنبوه» وأنا أقول: «الخمر غنم فارتكبوه». النبي يقول: «أيها الناس! شارب الخمر عابد وثن. إذا مرض لا تعودوه، وإن مات لا تشيعوه، وإن تشفع إليكم لا تشفعوه، وإن خطب إليك لا تزوجوه»، وأنا أقول: «شارب الخمر عظموه وأكرموه». . . وعلى هذا الحال والمنوال سائر الكبائر من الربا والقمار والفواحش وغيرها.

أيها الناس!

إن من حق المسلم على المسلم اداء النصيحة له، وأنتم أعزة لدينا كرام علينا. . . الله الله في أنفسكم! الله الله في أولادكم! الله الله في أموالكم وأعراضكم! الله الله في بلادكم واوطانكم!. . . إن هذا السير الذي تسيرون عليه سير على غير الطريق، وهو لا محالة سوف يؤدي بكم إلى الهلاك الأبدي والعذاب السرمدي.

نحن حتى لو قطعنا النظر عن الآخرة والحساب والجزاء، وصرنا -

معاذ الله - قوماً طبيعيين، فإن حياتنا المادية لا تساعدنا على ارتكاب هذه الأعمال.. أصبح حالنا على الحقيقة حال الجاهلية الأولى، سوى أننا نقول بالسنتنا: «لا إله إلا الله»، وكلكم تعلمون أنها لا تقبل إلا بشروطها، وما شروطها سوى تنفيذ حدود الله والالتزام بأحكام الله، وذلك هو الإسلام حقيقة.

كان الناس في الجاهلية يشربون الخمر، ويرتكبون الفواحش، ويأخذون الربا، ويستحلون قتل النفس المحترمة، وتشيع بينهم الغيبة، وينتشر عندهم الحسد... فبالله عليكم! طبقوا هل بيننا وبينهم فرق؟.. نحن بالقول مسلمون وبالعمل جاهليون «لساني يقول ولا أعمل».

إن أهم ما يجب على المسلم اليوم هو أن يطهر قلبه من كل غش وغل لأخيه المسلم، حتى يعود المسلمون كما كانوا؛ كلهم كتلة واحدة. وهذه هي القاعدة الأساسية وأهم التعاليم التي نجح بها الإسلام وتقدم.

ألف النبي ﷺ وآخى بين أصحابه حتى صاروا روحاً واحدة وأمة حية تحيا بروح واحدة وتشعر بشعور واحد، ولا يصلح آخر هذا الأمر إلا بما صلح به أوله.

مكافحة البضائع الأجنبية

أيها الناس!

انتقض البناء الذي بناه لنا الأولون فأصبحنا مملوكين للأجانب محتاجين إليهم في كل شيء، وليس معنى ذلك أن الله جعلنا محتاجين إليهم، ولكن نحن أحوجنا أنفسنا إليهم، لأنا لم نقنع بما يكفينا في قوام الحياة. نسمي الفضول «كماليات» وهي عين النقائص، ولو قنعنا بما يكفينا وترفعنا بأنفسنا عن تلك الفضول لما أصبحنا بهذه الحاجة والفاقة الماسة والفقر المدقع، ولما ابتلينا بهذا النقص في الأموال والثمرات. ما

الحاجة إلى شراء هذه السفاسف اللماعة والزخارف الخداعة؟.. خدعونا فجعلوا يبتزون أموالنا ويسلبونا عزنا ومجدنا، بل يمتصون دم حياتنا.

نحن أحوجنا أنفسنا إليهم فصرنا أسراء لهم... «احتج إلى من شئت تكن أسيره»، ولو قنعنا بما عندنا لكفانا.

أيها الناس!

أنا قلت من قبل ولا أزال أقول: «الاتحاد والاقتصاد»... احفظوا هذين الأصلين وخلاكم ذم. دبروا معاشكم، فإن التدبير نصف المعيشة، وما افتقر من دبر. ذهب الذهب وذهب كل شيء معه... هل ترون ليرات؟ أين الليرات التي كانت أيديكم وأكياسكم مملوءة بها؟... قد أصبحت أيديكم من الذهب صفراً، كما أصبحت أراضيكم من الخير قفرا!!

العمل.. العمل

إن كنتم تريدون أن تكونوا رجالاً أحراراً كاسلافكم... رجال صدق وعمال حق... فانبذوا الأهواء والرذائل والجلوس في المقاهي ومجالس البطالة. وما أدري - وليتني كنت أدري - ماذا تجنون من ثمرة بجلوسكم في تلك المجتمعات التي لا شيء فيها من الخير؟

الناس جدوا فنالوا، واجتهدوا فحصلوا، وصدقوا في الطلب فوفقوا.. وهل هم إلا رجال أمثالكم؟... طاروا في السماء، وشقوا البحار، وسخروا القوى الكامنة، واستغلوا كل شيء، حتى ضوء النجوم وقوة تيار النور وكامن أسرار الطبيعة.

الله الله أيها الناس! احذروا زبارج هذه المدنية الخلابة اللماعة البراقة، فإنها تذهب بكل نخوة وشرف، وما اخترعها القوم إلا لهلاك هذه الأمة، القوم أخذوا تعاليم الإسلام ففازوا وتقدموا، وتركناها فتأخرنا.

أليس من تعاليم الإسلام «أغزوهم في عقر دارهم قبل أن يغزوكم، فـوالله مـا غـزي قـوم فـي عقـر دارهـم إلا ذلـوا». وهكـذا كـان سيـر المسلمين. . . طووا عرض البسيط، وتقحموا لجج المحيط من أسبانيا في الغرب إلى جدران الصين في الشرق.

أما اليوم - ويا للأسف! - فقد انعكس الأمر وانقلب علينا الدهر، فلم تبق بقعة من بلاد المسلمين إلا وهي مستعمرة بل مستعبدة لهم، يغزوننا في عقر دارنا ويملكوننا في بلادنا. اشغلوكم بالترهات والخزعبلات، واندفعوا إلى الجديات التي أنتم لاهون عنها بالمقاهي وقابعون في غمرة الملاهي.

الحلة الفيحاء

أنتم معشر الحليين الكرام! لم تزل بلدتكم الكريمة هذه سامية الآثار عالية المنار من بدء تأسيسها في آخر القرن الخامس حتى الآن، ولا جرم ولا غرو، فقد انشأها أرباب السيف والقلم واعلام العلم والعمل وفرسان المحابر والمنابر، العرب الاقحاح «بنو دبيس» من «بني أسد»، أنشأها سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس بن مزيد. وكانت - كما يقول الحموي - «أجمة تأوى إليها السباع»، فنزلها بأهله وعساكره، وقصدها التجار، فصارت من أفخر مدن العراق وأحسنها. ولكنه ما لبثت، بعد أن كانت أجمة قصب، أن عادت أجمة فضل وأدب، وبعد أن كانت تأوي إليها السباع تتهافت إليها المصاقع من الاصقاع تهافت الجياع على القصاع.

لله هي من تربة! فكم انتجت وانجبت من الرجال، وما زالت تؤتى أكلها حيناً بعد حين بما تخرج من فطاحل العلماء وأماثل الأدباء، وقد استمر سيرها الأدبي والعلمي عدة قرون. ولو أردنا تعداد أو احصاء من تخرج من هذه الفيحاء من الأعاظم لاحتجنا إلى عدة دفاتر وطوامير

ومحابر، ولاننفك نجد منهم الرجال الذين يلمعون في أفق التاريخ لمعان الكواكب في آفاق السماء، وكأن تربتها قد عجنت بعبير الذكاء والعبقرية، وامتازت بالفطانة واللوذعية. ولم يزل يتعاهدها بالتربية والتثقيف أساتذة أساطين، نشأوا منها ونزحوا عنها ثم عادوا إليها، منهم جدي الأعلى (كاشف الغطاء)، وخلفه جدي القريب الإمام «موسى بن جعفر» فإنه كان يصطاف بها كل عام، وكانت لبعض وجهائها حديقة غناء يدعوه إليها كل سنة، فقال الشيخ صالح التميمي - أحد نوابغ شعراء الحلة في ذلك العصر -:

عذرت ولم أعذر على البغي جنة ... طغت فبدا بين الجنان غرورها
تعز غصوناً كالعذارى إذا انثنت ... فماس بأوراق الحلى نضيرها
تزور ملوك الأرض (موسى) وهذه ... كفاها فخاراً إن (موسى) يزورها
ولو لم تكن طور الحدائق لم تكن ... له عادة في كل عام يطورها

وكان حاكم الحلة يومئذٍ «سليمان باشا» أحد قرابات الوالي الاقطاعي في بغداد «داود باشا»، وكان الحاكم المزبور ظالماً غشوماً.. فإذا حل الشيخ في الحلة كف الحاكم عن ظلمه وعدل واعتدل، فإذا قفل راجعاً إلى النجف عاد إلى شنشنته، فقال الشيخ صالح - المتقدم - في إحدى مغادرات الشيخ للحلة متوجعاً لسفره عنها:

بمن تفخر الفيحاء والفخر دأبها ... قديماً وعنها سار موسى بأهله
وغادرها من بعد عز ومنعة ... تحاذر كيد السامري وعجله

فبلغ ذلك سليمان باشا، فاستحضره للعقوبة، وقرأ عليها البيتين. فقال الشيخ صالح: «هذان البيتان قد حرفا، والذي قلته غير هذا». ثم انشأ ارتجالاً قوله:

زهت بأبي داود حلة بابل ... والبسها بالأمس بردة عدله
وكانت قديماً قبل موسى وقبله ... تحاذر كيد السامري وعجله

فعفى عنه وخلع عليه.

ثم تلى «الشيخ موسى» أخوه «الشيخ حسن». فإنه أقام في الحلة برهة، وكان مرجعها الوحيد، وفيها ألف كتابه الجليل الموسوم بـ «أنوار الفقاهة». ولم يزل المشايخ من أسرتنا يتعاهدونها من حين إلى آخر.. إلى أن اشرقت فيها الكواكب الساطعة من «آل عبد المطلب» والسادة الأشراف من «آل مناف»، بدور الهدى وبحور العلم وينابيع الأدب الغض، وهم منا ونحن منهم، وما زال هذا البيت (آل معز الدين) ممدود الرواق سامي الآفاق، إذا غاب منهم كوكب لاح كوكب... «من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم».

فيا أهل هذه البلدة الطيبة التي خصها الله بتلك المزايا الفاضلة والشعور المتوقد! ألا يجدر بكم أن تنهضوا إلى المعالي، وتغتنموا الفرص، وتستردوا مجد الجدود والآباء، وتكونوا قدوة لغيركم من سائر البلدان؟

الشبيبة

يا شبيبة الحلة!

أنتم زهرة البلاد، أنتم الأرواح والأكباد، أنتم الأموال والأولاد.. البلاد لكم وأنتم للبلاد، فإن حفظتموها حفظتم المجد والشرف، وإلا ضعتم واضعتم. اياكم والسرف في المقاهي والملاهي!.. الشباب باكورة العمر وربيع الحياة، فاغتنموا العمل والجد والاجتهاد فيه. اغتنم صحتك قبل سقمك، وشبابك قبل هرمك، ووجودك قبل عدمك... لا تحصيل إلا وقت الشباب، فاغتنموا شبابكم، وإلا فما أشد الندم بعده، حيث لا ينفع الندم. ولعل الله - سبحانه - ساقني إليكم لانبهكم وارشدكم وليتم الحجة عليكم، والمصلحة تعود لكم، وقلوبنا تحترق عليكم. ونستودعكم الله بالسلامة. والسلام.

الخطبة الرابعة

الخطاب الذي تفضل به سماحته في النجف الأشرف - في ٢٨ صفر سنة ١٣٥٣ هجرية - في الصحن الشريف على جماهير من المستمعين مرتجلاً. قال رحمه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين وصحبه الطيبين.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

إن الله - سبحانه وتعالى - لما ذرأ الخليقة، وبرأ النسمة، واوجد البشرية.. أوجد فيها ثلاث غرائز ملازمة لها: أوجد الإنسان جاهلاً لا يعلم شيئاً، وفقيراً لا يملك شيئاً، وعاجزاً لا يقدر على شيء. فهذه الخصال الثلاثة هي الضريبة الأولى على ابن آدم التي جبل عليها وتمكنت منه... جهل، وعجز، وحاجة.

ولكنه - جل شأنه - قابل هذه الرذائل المتأصلة فيه، والتي هي أمهات بلائه، وأصول شقائه، وينابيع ضرائه، وشجرة جميع رذائله وذمائمه.. بثلاث من النعم: نعمة الوجود، ونعمة الحياة، ونعمة

الادراك. فجعله موجوداً حياً مدركاً. وهذه هي أصول النعم والفضائل التي يستطيع بها أن يتدارك ما يدخل عليه من النقص بتلك الرذائل السابقة. ولكن الإنسان بما أنه جاهل لا يعلم كل شيء ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾، فلا يهتدي ولا يستطيع أن يستثمر تلك المواهب العظمى، فكان بالضرورة وبالطبع يجب على الله من باب اللطف، لأنه أوجد البشرية للنعمة والهناء لا للبلية والشقاء... نعم! كان من الواجب عليه أن يبعث في كل برهة معلمين مهذبين يعلمون الناس كيف يستغلون نعمة الحياة ويستثمرون ادراكهم وعلمهم، فكان المصلحون والمرشدون لا يزالون على طول الأبد تأتي منهم ثلة بعد ثلة.

فأعلى طبقاتهم الأنبياء والمرسلون، فإنهم ما بعثوا إلا لتثقيف البشر وتهذيبهم ودفع تلك الرذائل عنهم، ثم يليهم الأئمة والأوصياء والسفرة والبررة، ثم بعد هاتين الطبقتين العلماء، ولا أعني بالعلماء من أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «وآخر قد يسمى عالماً وليس به، قد جمع اضاليل من ضلال وجهالات من جهال»، ولكن أريد العلماء الذين يعنون بتهذيب البشر واصلاح أخلاقهم وتزكية نفوسهم، فما من أمة قام فيها مرشدون إلا وكانت سعيدة وحصينة من السوء، وما من أمة خلت منهم إلا وكانت عاقبتها الدمار. فالله يقول: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، ثم عقب هذه الفقرة الشريفة بكلمة انبأت عن مغزاه من ارسالهم، حيث قال: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾. فالغاية منهم أن يكونوا مبشرين بفوائد الاصلاح ومنذرين بمضار تركه. وإلى هذا أشار في آية أخرى، حيث قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾، يعني: أن وجود المصلحين يستحيل معه هلاك الأمة. فإذا جاء الأنبياء وورثتهم العلماء وقاموا بوظيفتهم، فحينئذٍ من آمن واصلح واتبع سيرتهم فلا خوف عليهم، وأما إذا لم يتبعوا السيرة النبوية ولم يكونوا مصلحين فهناك الخوف والحزن.

أهمية المصلحين

منزلة المصلحين من الأمم منزلة الأطباء والمعالجين. . فكما أن الأطباء يعالجون الأمراض الجسمانية فكذلك العلماء يعالجون الأمراض النفسانية المهلكة لها، وبهلاك النفس هلاك الجسد، ومرتبة هؤلاء كمرتبة الروح من الأجسام.

أمراض النفوس وعللها واسقامها أكثر من أمراض الأجسام. . فهي تشمل الحسد، والجهل، والغرور، والكبر، والبخل. . . أصولها كثيرة فضلاً عن فروعها وجزئياتها. وهذه الأخلاق الرذيلة هي سوس الأمم وموجب هلاكها. وكما يستحيل أن تبقى أمة بلا معالجين للأجسام، فكذلك يستحيل أن تحيا أمة بدون مطهرين للأخلاق.

وكما أن لكل فرد من الأفراد كياناً مخصوصاً ووجوداً محسوساً، وهو معرض لآفات كثيرة. . . كذلك الأمم، فهي متكونة من مجتمع تلك الأفراد المرتبطة بروابط روحية، مثل الدين واللغة والتربية، فإذا اتحدوا في هذه المشخصات الثلاث صاروا أمة من الأمم. وهي كالفرد الذي هو عبارة عن أشياء متباينة وحقائق مختلفة مربوط بعضها ببعض، وهي العظم واللحم والعصب والعروق، قد جمعتها روح واحدة، وصيرتها عالماً محسوساً وشخصاً واحداً، وهي أيضاً عرضة للأمراض الاجتماعية، فإذا قتلت روحها هلكت الأمة، كالفرد تماماً.

وهذه العلل والاسقام التي تعرض للأمم تنشأ من عدم المصلحين فيها وأهمالهم الاصلاح الذي هو فريضة على كل إنسان كل بحسبه. . . «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول».

تنشأ المفاسد من جهلاء ناقصين عقلاً، فيهملون العلماء اصلاحهم، ثم يتسع الخرق شيئاً فشيئاً حتى يعم البلاد.

الله أعطى الإنسان مواهب كما ابتلاه بمثالب، وجعل تلك المواهب درء للمثالب، فإذا اقتصر على الثانية انعكس الأمر وهلكت الأمة بتكاسل زعمائها ومصلحيها.

القضاء على الأعمال المنكرة

في مثل هذه البلدة التي هي مركز العلم والتقى والصلاح، والتي هي مطمح أنظار العالمين، تقوم فيها مثل هذه البدع التي لا يقر عليها شرع ولا عرف.. يقوم فيها بعض الجهلاء فلا يردعون، تعم الرزية والعقلاء ساكتون عن مثل هذه المنكرات الفظيعة!.. مثل هذا الحرم المقدس «رب اجعل بيتي حرماً آمنا» يصير حرماً مخيفاً يخافه كل متستر من بلاء يقع عليه!

هذه الأعمال الفظيعة والمنكرات المخزية، التي يطغى شرها وينتشر شررها في هذه الأيام، هي التي فككت روح الاخوة الإسلامية وفرقتها.

ولو كانت هناك روح واحدة لأحس كل مؤمن بالم الآخرة وبالمنكر الذي يقع على أخيه ولتألم منه، وإذا تألم يتصدى لرفعه.. لكنا نعيش عيشاً فردياً لا اجتماعياً، فإذا نزل بأحدنا مكروه لا نحس به ولا نتصور أنه سيقع علينا، وهذه الأحوال والمصائب هي التي أوصلتنا كافة إلى هذه الحال من الضعف، فهضمت الحقوق وسلبت العزة، ولم تبق لنا حرمة.

ولكن كل هذا البلاء وهذا العناء وهذه المصائب التي ترد علينا ليس الملوم فيها غير أنفسنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

هل علمتم بما جنيتم.. فمظلومون أنتم وأنتم الظالمونا؟!

أنا اترصد واترقب سير الأمور. وقد رأيت عياناً محسوساً أن الكتاب

الصادر في العام الماضي، والذي يقول: «هؤلاء سبأية ساسانية، ازيحوهم واكسحوهم من العراق، لا تعطوهم شيئاً من الحقوق». . اليوم أرى عياناً أنهم أخذوا يطبقون تلك النظريات ويسيرون عليها. . ولكن من ذا يحس ويعمل للمستقبل؟!

نحن نشتغل، ولكن شغلنا بمثل هذه الأمور التافهة من «الطرقات» والكبائر والافتراء على الله والنبي والزهراء، فنؤذي طلاب العلوم المهاجرين عوض احترامهم واكرامهم، وفي الحديث القدسي «من آذى لي مؤمناً فقد بارزني بالمحاربة»، مستعدون لنشتغل بمثل هذه الأمور. . أما من جهة ما يجري على إخواننا وأولادنا من البلاء، وقد امتلأت منهم السجون، فذاك أمر لا ندري به ولا نتساءل عنه.

حدثني أحد وجهاء الحلة يقول: الحلة أصبحت هي المحبس والمسجن العام في الفرات، ولهذه السجون صورة مهولة من كثرة المسجونين، ولكن قف على سطح السجن وناد: يا نصراني (لا جواب)، يا يهودي (لا جواب)، يا صابئي (لا جواب)، يا جعفري (مئات والوف من الأجوبة)!! . . فأهل الجنايات والحبوس كلهم منا. وباليقين ليس كلهم أهل جرائم، بل قسم منهم أبرياء وآخر جناة، ووزر كلا القسمين على مجموع الأمة.

أما الجناة فحيث أن الأمة قد عدمت المصلحين الذين يرشدونها فتركوهم واهملوهم أمرهم، فارتكبوا الجنايات ووقعوا في مهاوي العقوبات. وأما الأبرياء الذين ظلموا وحبسوا لاغراض وهوى في النفوس فوزرهم علينا، لأنا لسنا بأمة تدفع الضيم بعضها عن بعض، فيأتي الذئب يفترس هذه النعجة والأخرى والثالثة. . . وهكذا، ولا دافع ولا مانع. أليس الذنب علينا؟ أليست البلية سوف تصل إلى كل منا؟

ذهب الإيمان من صدورنا فذهبت العزة والنخوة من رؤوسنا والله -

سبحانه - يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾. ولكنا خنعنا فصرنا اذلاء.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: «أن امرأ يمكن عدوه من نفسه، يهشم عظمه ويعرق لحمه ويمتص دمه، لبادي الوهن ضعيف ما ضمت عليه جوانح صدره. أنت فكن ذاك، وأما أنا فدون أن أعطي ذلك من نفسي ضرب يطير منه فراش الهام وتطيح منه السواعد والاقدام».

ولكن أيرجى فينا الصلاح؟... هيهات!

والله لا يرجى الصلاح وأمرنا ... فوضى وشمل المصلحين ممزق
ماذا يرد الظلم عنك: ازفرة؟ ... أم حسرة؟ أم عبرة تترقرق؟
لا تلجأن إذا ظلمت لمنطق ... فهناك أضيع ما يكون المنطق

أنت ظلمت بالقوة، وبالقوة يمكنك إزالة الظلم. وليست القوة إلا اتحادكم وطرح الأحقاد التي هي على غير طائل فيما بينكم، وقد صرتم غنيمة للأجانب. حالنا حال الأغنام تماماً.. كل يوم الجزار يسحب قسماً منها والباقي ساكنون لاهون بالعشب والمرعى، لا يدرون ما سيجري بهم غداً.

أيها الناس!

نعود إلى ما كنا فيه:

الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾.. اسرعوا في الاصلاح وإلا هلكتم، ولا أقول ستهلكون، ولكنم هلكتم.. وأنا الناصح لكم، ولا ينبئك مثل خبير.

أليس من العار والخزي أن تشتغلوا بمثل هذه التوافه وأنتم في قعر ظلمات الظلم؟!.. في صحن الأمير تهتكون حرمات الله!

أيها الناس!

اعلموا - وأنا المسؤول عنكم أمام الله - أن أعمالكم في تاسع ربيع كلها حرام، وضرب «الطرقة» أعظم من شرب الخمر.. ضارب الطرقة كبائع الخمر! فحاربوا هذه الأعمال وأشباهها مثل أذية المؤمنين. من آذى مؤمناً فقد انقطعت العصمة بينهما، وإذا انقطعت العصمة بينه وبين المؤمنين انقطعت صلته بالله، وعند ذلك الويل والثبور. لا يكفيكم فعل هذه المنكرات المخزيات حتى صرتم تنسوبنها إلى الله - جل شأنه - وإلى الشرع الشريف ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

تكذبون على الله وتقولون هذه «فرحة الزهراء»!!

أيها الناس!

قمت بينكم في العام الماضي وارشدتكم، واشكركم، ويشكركم الحق، حيث اطعتم وامتثلتم. وأرجو أن تكونوا في هذا العام أشد منكم في العام الفائت في ترك هذه المحرمات.

هذا مشهد أمير المؤمنين عليه السلام أسد الله وأسد رسوله، وباب مدينة العلم والتقى. ألا يجب أن يكون من اطهر البقاع وانقى المشاهد؟

الشيبة يذكرون أن أحد الولاة كان محباً لأهل البيت، وجاء للنجف مرة، وأمر بأن تنزع الأحذية في باب الصحن، ومنع البصاق والتدخين داخله، ومضى زمن على ذلك. هؤلاء رجال من العامة، انظروا كيف يقومون بالحرمات، ونحن الشيعة نضرب الطرقات قرب الرأس، ونحرق الأموات. مائتا جاهل يعبثون وأكثر من ٣٠ ألف نسمة لا يتصدون لردهم.

انا لا نمنعكم من الإنس والسرور، فإن هذه الأيام أيام أنس وفرح، أيام المولود النبوي المبارك الذي أرسله الله رحمة للعالمين.. ولكن ليس

السرور بضرب الكبائر والطرقات وايذاء المؤمنين، بل بعقد الولائم والمجالس، وعمل النكات الهزلية الأدبية، وقراءة مدائح النبي وأهل بيته.

ما يستحون من الله ويريدون رحمته!.. ليلة الوفاة، وفاة سيد الأنبياء، يضربون الطرقات. الوزر عليكم جميعاً أيها الناس!.. هذا يوم ولله يوم آخر! الغيرة مسلوبة من الخلق، ولو كانت هناك غيرة لما استعبدوا وذلوا. يقولون إننا أكثرية.. ولكن ماذا تفيد الأكثرية.. أكثرية الغنم مقابل مدية الجزار؟!

اصلاح معدوم وصلاح مفقود.

أين المصلحون؟ أين أحراركم؟ أين صلحاؤكم؟... لو كان هناك اصلاح لما انحطت الهيئات الاجتماعية والفردية كلها إلى هذه الدرجة من التعاسة. الآية الشريفة تقول: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

نصائح وعبر

أيها الناس!

الله قيضني لاتمام الحجة عليكم أن ارقى المنبر مرة في كل عام على الأقل، كي انذركم واحذركم من الطوارىء والرزايا، وأنتم لا تعرفونها، وأنا اراها بدقيق النظر وثاقب الفكر والبصر.

اجمعوا صفوفكم.. وحدوا كلمتكم.. اعملوا أعمالاً منظمة بقيادة كبراء الأمة، لندفع ما أحاط بنا من الذل وسقوط الشرف الذي صيرنا فقراء خانعين متفرقين، وأصبح غيرنا متنعماً بأموالنا في القصور الشاهقة والجنائن المؤنقة. أصبحنا فقراء أسراء في بلادنا وكل ذلك من أنفسنا. فوضى.. فوضى في كل شيء.. متفرقين في كل ناحية!

لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سـراة إذا جهـالهـم سـادوا

لا زعامة ولا حشمة بسيادة الجهال، فيجب أن تبحثوا عن أناس شفوقين عليكم، تنقادون لارشاداتهم وتعاليمهم لينقذوكم من هذا البلاء.

السجون مملوءة منا، والضرائب والضربات متوالية علينا، ونريد أن نكون محترمين، وأن تدفع إلينا حقوقنا.. وذلك لا يكون بالالتماس.

الحق يؤخذ ولا يعطى... إذا لم تأخذوا الحق بالقوة لا تأخذوه بالالتماس والمروة. الأمة التي تم بينها الوئام يستحيل أن تذل وتضام. أما الظلم والضيم فهما لكل أمة مشتتة متفرقة.

سيد الشهداء علم كل الدنيا، لا خصوص الشيعة، طريقة الآباء والعز والشرف والشهامة. فعل فعلاً فريداً من نوعه ليعلم شيعته الإباء والتمسك بالمباديء المقدسة، ولكنا تركنا اللباب وأخذنا القشور، واقتصرنا على النوح واللطم والبكاء. أنا لا أقول لا تلطموا، بل أقول: لا تقصروا على القشور والظواهر وتتركوا اللباب والجواهر.

الحسين - سلام الله عليه - لم يكن فقيراً ولا بائساً ضعيفاً، بل كانت جميع أسباب النعيم والثروة متوفرة عنده حاضرة لديه، ولكنه فادى بكل ذلك في سبيل الشهامة وعدم الرضوخ والذل.

محمد بن بشر الحضرمي تألم لما أسر ولده في الري، فاذن له الحسين بالذهاب لفداء ولده، ولكنه أبى، فقدم له الحسين خمسة ثياب كل ثوب بقيمة مائتي دينار ذهب، وسقى الحر، وألف فارس وألف فارس ماء، مع أنه كان في بادية هيماء، لا ماء فيها ولا كلاء.

أين ذهبت تلك المغازي؟.. أفهل كان قصده من شهادته اللطم والبكاء؟

العرب البائدة قبيلتان: «طسم» و«جديس». تغلبت طسم على

جديس وفعلت بها الأفعال الشنيعة واذلوها، إلى أن اغتصب ملك طسم امرأة من فتيات جديس، فخرجت على قومها وفي نواديهم تصيح:

أيجمل ما يؤتى إلى فتياتكم وأنتم رجال كثرة عدد النمل
فلو أننا كنا رجالاً وكنتم نساء لما كنا نقر على الذل
فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه فكونوا نساء للمغازل والحكل

أمة تعودت على الانخداع بالألفاظ والأقوال، لا توجد فيها نهضة شريفة قويمة، ولا فكرة ناضجة مستقيمة.

هذه أعمال تاسع ربيع كلها محرمة ما أنزل الله بها من سلطان، ولو أنكم تشربون الخمر لكان خيراً لكم من هذه الأعمال!! ولكنكم - إن شاء الله - لا خمر تشربون ولا أفعال محرمة تفعلون. أنتم بنظر أسد الله وفي جواره، أنتم بضربكم «الطرقات» تضيعون الأموال وتؤذون الأحياء والأموات، فما هذه اللذة؟

أي أمة من الأمم الوحشية تعمل مثل أعمالكم هذه؟.. انظروا البدو، فهل عندهم مثل هذا؟

نحن في بلد هو مهجر العلم ومحط رجال رواد المعارف، افيليق أن تكون أفعالنا فيه مثل هذه؟! لا حياء، لا غيرة.. والتقصير مني ومن أمثالي، وما هناك من مصلح، بل كلنا مشغولون بمصالحنا.

وظيفة العالم لا تنحصر في الفتوى فقط، بل أهم وظائفه الارشاد والاصلاح ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ والعلماء ورثة الأنبياء والأوصياء، فيجب أن يقتدوا بهم في التزكية والتهذيب.

أيها المؤمنون!

طال المقام، فاختم كلمتي بشيء ربما يؤثر عليكم:

في مثل هذا اليوم انفتحت أبواب المصائب على المسلمين، لأن الرحمة العامة التي أرسلها الله لحمل مشعل الاصلاح ارتفعت.. ارتفعت تلك الرحمة عن البشر في مثل هذا اليوم، فما اجدرنا بالحزن والبكاء فيه! لأنه يوم كان فيه مصدر مصائبنا وارتفاع الخير والبركات عنا.

اذكروا نبيكم على الفراش والأعمال تدبر. أريد أن أشير لكم إلى معنى كي تعرفوا عما للتدابير والمؤامرات من التأثير في تحوير الحقائق.. أربعة أو خمسة تآمروا ودبروا، وعلى الحق تعاونوا وتناصروا، وعقدوها عقدة لا تحل. أفلا يوجد فيكم أربعة أو خمسة يدبرون للحق ويتعاونون للعدل ويتناصرون على دفع الضيم؟.. ولكنكم عند قدوم تاسع ربيع ارقصوا في هذه الزاوية من الصحن وتضاربوا!! وأعمالكم هذه والله معدومة حتى عند الوحوش والبهائم!!

غفر الله لنا ولكم. والسلام عليكم.

في ذكرى ميلاد

أمير المؤمنين علي عليه السلام

خطبة الفقيد الراحل «كاشف الغطاء» في مولد الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام في ١٣ رجب ١٣٦٨ في «حسينية باب السيف» في «الكرخ» ببغداد.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾.

يعز علي - أيها الأعزة - أن أحل مجلسي لانتهاز هذه الفرصة الثمينة والقاء ما يناسب هذه الليلة المباركة وهذا الحفل الكريم مع أني في دور النقاهة.. منهوك القوى. خافت الصوت، ضيق الصدر، رعين العلة والمعالجة. ومن يقول عن مقال له تواضعاً: هذا جهد المقل، أو هذه نفثة مصدور.. فأنا أقولها حقاً لا تنازلاً، والعيان أصدق شاهد على ذلك.

نعم! نبتديء كلمتنا متفائلين بقوله - تعالى -: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

هذه السفينة في الزمن الأول والعهود المتوغلة في القدم أول مركب

نجا به جميع من على وجه الأرض من المؤمنين المستضعفين، تخلصوا من سطوة الغاشمين وسيطرة الظالمين، بعد الجهود الطائلة واتمام الحجة من شيخ الأنبياء زهاء ألف سنة. وبعد أن عامت السفينة في أمواج الطوفان الذي غمر هذه الكرة بأجمعها سنة كاملة: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾.

نعم! هذه السفينة هي السفينة التي شبه رسول الله ﷺ أهل بيته بها في الحديث المشهور بين الفرقين: «أهل بيتي كسفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها هلك وهوى».

ومن يتدبر حال العصور التي قبل الإسلام وما كان العالم فيه، لا جزيرة العرب فقط، بل حتى الدول العظمى في تلك القرون، من الفرس والروم.. من يتدبر ما كانت فيه تلك الأمم من الجهل والجور والاستبداد، يعرف طوفان البلاء الذي غمر الدنيا يوم ذاك، ويعرف شدة الحاجة إلى من ينقذ ذلك الخلق البائس من تلك الغمرات.

فبعثت العناية الأزلية المنقذ العظيم حبيبه محمد رسول الله ﷺ.. ولكن قبل أن يتم رسالته وينقذ عموم البشر من ذلك الشر الذي توغل في النفوس واستفحل من عهد قديم.. قضت الحكمة الغامضة أن يعود إلى الملكوت الأعلى الذي جاء منه.

واكمالاً للرسالة، وابلاغاً للغاية، أشار إلى من يتم به الفرض، ومن تقوم به الحجة، فقال قبل رحلته بقليل: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي». وبهذا اتجه أن يصدع الوحي بقوله - تعالى -: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾.

وجد نبي الرحمة، عند قرب رحيله، أن العالم لا يزال بعده مغموراً بطوفان الجهالة، والضلالة لا تزال مستحكمة، وأن لا بد لهذا الطوفان من سفينة تنجي من أراد النجاة، فقال: أهل بيتي هم السفينة. وفي دعاء

شعبان: «اللهم صلِّ على محمد وآله، الفلك الجارية في اللجج الغامرة، يأمن من ركبها ويغرق من تركها..».

ولايته السفينة فاركبوها نجا والله من ركب السفينا

بيد أن سفينة نوح ما نجت من الطوفان ورست على الجودي إلا بمحمد وآله ﷺ.. كما أشار إلى ذلك العباس بن عبد المطلب في مقطوعة تنسب له يمدح بها ابن أخيه محمد ﷺ فيقول:

من قبلها طبت في الظلال وفي مستخصف حيث يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشر أنت ولا نطفة ولا علق
بل ملك تنقذ السفين وقد الجم نوحاً وقومه الغرق

صانع السفينة الأولى شيخ المرسلين، وواضع السفينة الثانية سيد المرسلين.

السفينة الأولى خشب يجري على الماء، والسفينة الثانية نور هبط على الأرض من السماء.. واضعها محمد ﷺ، وربانها ومسيرها أخوه وصنوه الإمام الذي احتفلت هذه الجمعية (جمعية المقاصد الخيرية العراقية) بذكرى ولادته ففي هذه الليلة المباركة ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.

ولا نستطيع في مقامنا هذا، أن نأتي على اليسير من فضائل هذا الإمام العظيم فضلاً عن الكثير. ومن ذا يقدر على احصاء نجوم السماء من مناقبه.. شجاعته، وبلاغته، وزهده، وسوابقه في الإسلام، التي هي كلمات الله.. ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾.

إنما المناسب في المقام هو التعرض لولادته في هذه الليلة المباركة. ونتعرض لشأن واحد من شؤون ولادته - سلام الله عليه - وهو

ولادته في الكعبة على أشهر الروايات، ولعل غيرها من مدسوسات النواصب، الذين يريدون أن يستروا ضوء الشمس بأكفهم.

وولادته في الكعبة طفحت بها الكتب ونظمتها الشعراء حديثاً وقديماً، وآخرهم «عبد الباقي» الشهير في مستهل قصيدة له:

أنت العلي الذي فوق العلي رفعا ببطن مكة وسط البيت قد وضعا

وهي منقبة لم يشاركه فيها أحد في الإسلام.

وقد ذكروا أن مريم لما جاءها المخاض بعيسى عليه السلام آوت إلى بيت المقدس لتضعه فيه، فنوديت: اخرجي يا مريم! فهذا بيت العبادة لا بيت الولادة!.. وفاطمة بنت أسد لما أحست بالطلق وهي في الكعبة، أنسدت ولم تقدر على الخروج حتى وضعت علياً عليه السلام.

ولعل في هذه الحادثة الغريبة أسرار ورموز أجلها وأجلاها أن الله - سبحانه - كان يقول: أيتها الكعبة! إني سأطهرك من رجس الأوثان وعبادة الأوثان والانصاب والازلام بهذا المولود فيك.

وهكذا كان.. فإن النبي دخلها عام الفتح والأصنام منضودة ومعلقة على جدرانها، ولكل قبيلة من قبائل العرب صنم... فأصعد علياً على منكبيه، وصار يحطمها ويرمي بها إلى الأرض، والنبي صلى الله عليه وآله يقول: «جاء الحق وزهق الباطل، أن الباطل كان زهوقاً».

وقد نظم «الشافعي» هذه الفضيلة في مشهورة تنسب له، يقول في آخرها:

وعلي واضع اقدامه في محل وضع الله يده

فإن النبي كان يحدث عن المعراج قائلاً: «إن الله - عز شأنه - وضع يده على كتفي حتى أحسست بردها على كبدي».

وفي ولادته رمزاً آخر لعله أدق وأعمق.. وهو أن حقيقة التوجه إلى

الكعبة هو التوجه إلى ذلك النور المتولد فيها. ولو أن القصد مقصور على محض التوجه إلى تلك البنية وتلك الأحجار لكان أيضاً نوع من عبادة الأصنام - معاذ الله - . . ولكن التناسب يقضي بأن البدن، وهو تراب، يتوجه إلى الكعبة التي هي تراب، والروح التي هي جوهر مجرد تتوجه إلى النور المجرد. وكل جنس لا حق بجنسه. . النور للنور، والتراب للتراب. وإلى بعض هذا أشار بعض شعراء الفاطميين إذ يقول عن الإمام:

بشر في العين إلا أنه ... من طريق العقل نور وهدى
جل أن تدركه أبصارنا ... وتعالى أن نراه جسدا
فهو في التسبيح زلفى راكع ... سمع الله به من حمدا
تدرك الأفكار منه جوهراً ... كاد من اجلاله أن يعبدا
فهو الكعبة والوجه الذي ... وحد الله به من وحدا

وهذا الطراز من الشعر وإن كان فيه شيء من الغلو، ففيه كثير من الحقيقة، وفيه لمعات من التوحيد.

نعم! نتوجه بأبداننا في خلواتنا إلى الكعبة، وبأرواحنا إلى النور الذي أشرق وأضاء فيها. . نتوجه إليه فنجعله الوسيلة إلى الله، كما قال - عز شأنه -: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ نتوجه إليه كي يوجهنا إلى الخير والسداد. فالتوجه منا إليه والتوجه منه لنا.

نعم! كتاب الله والعترة سفن النجاة والعروة الوثقى التي لا انفصام لها، ولا يضل ولا يزل من تمسك بهما. . ولكن ليس التمسك قول باللسان وثرثرة بالألفاظ. . .

التمسك عقيدة راسخة وأعمال صحيحة، بنية خالصة، وقلب طاهر سليم، وأخلاق فاضلة. . . التي هي روح الدين وجوهر الإسلام، والتي طفح بها الكتاب والسنة.

ولكن أين نحن من مراحل هذه الفضائل والأخذ بهذه

الوسائل؟!... أبهذا التفسخ الأخلاقي والتفكك الاجتماعي ونبذنا الكتاب والسنة وراء ظهورنا نريد أن نعد أنفسنا من المسلمين وبالعروة الوثقى متمسكين؟!... كلا! وكلا!... ولو كان لنا من الإسلام ذرء أو ذرة لما سقطنا هذا السقوط الشائن ولما فشلنا هذا الفشل المخزي.

امتحنت «فلسطين» بمحنة الصهيونية منذ أربعين سنة، وما زالت الصهيونية تتقدم والعرب والإسلام تتأخر. وقد اقتحمت معاركها الأولى، ولم أزل منذ عشرين سنة، اقرع المنابر واقرع الأسماع بالخطب النارية، وانشر المقالات الملتهبة في الصحف وغيرها، وأهيب بالمسلمين وادعوههم إلى الوحدة وجمع الكلمة، وأن الإسلام بني على دعامتين «كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة»، واصرخ الصرخات الداوية أن يصلحوا الوضع بينهم لانقاذ فلسطين الدامية... وكنت من زمن بعيد أبث شجواي في أبيات منها:

نهضت فقيل أي فتى فلما ... خبرت القوم طاب لي القعود
وإني بعد مجهدة وقومي ... كضاربة وقد برد الحديد
وحيد بينهم ولعل يوماً ... عصيباً فيه يفتقد الوحيد
لنا في الشرق أوطان ولكن ... تضيق بنا كما ضاقت لحود
نقيم بها على فقر وذل ... ونظمأ، لا يساغ لنا ورود
مواعيد السياسة بينات ... تكيد بها السياسة من تكيد
وعود كلها كذب وزور ... فكم وإلى م تخدعنا الوعود؟
إذا ما الملك شيد على خداع ... فلا يبقى الخداع ولا المشيد
إذا لم تبتن ملكاً صحيحاً ... فلا تغني الجيوش ولا البنود

ومن هذه الشعلة ثلاثة أبيات ذكرتها في مقدمة الجزء الأول من مؤلفنا «الدين والإسلام» الذي طبع في مطبعة العرفان قبل ٣٨ سنة، وهي:

فلا طلعت عليّ الشمس يوماً ... إذا عن مجد قومي لا اذود
أموت وقد بلوت النفس جهداً ... كما تحمي عرينتها الأسود

كذلك فلتكن للعرب نفس وإلا ما الحياة وما الوجود؟!

نعم! كنا نعتز بذكر العرب ونرتاح بالانتساب إليهم... ثم دارت رحى الزمان، فصرنا نخجل من ذكر العرب والعروبة وما يشتق منها، ونود لو كنا من «المخزر» و«البربر» ولم نكن من هذه الأمة، وانطبق علينا تماماً قول القائل:

ورثنا المجد عن آباء صدق اسأنا في ديارهم الصنيعا
إذا الحسب الرفيع تواكلته بناة السوء أوشك أن يضيعا

«فلسطين» قلب البلاد العربية تحقيقاً، تحف بها - كالهالة - مصر وسوريا ولبنان والأردن والحجاز... فإذا هلك القلب فما حال بقية الأعضاء؟!.. ولا شك أن الوضع إذا بقي على هذا الحال فلنا فلسطينات أخرى في زمن قريب - لا سمح الله -!

ألا يخطر على بالكم قول شاعر الفردوس الضائع - الفردوس العربي - حيث قال:

حثوا أرواحكم يا أهل اندلس ليس البقاء بها إلا من الغلط
من جاور الشر لا يأمن عواقبه كيف الحياة مع الحيات في سفط
العقد يبتر من أطرافه وأرى عقد الجزيرة مبتوراً من الوسط!

مصيبة المسلمين عظيمة... وأعظم منها: أن المصائب من شأنها أن تنبه الشعور، وتعطي لأهلها دروساً وعبر، وتجمع الشمل، وتوحد الكلمة... أما مصيبتنا بفلسطين فما صنعت شيئاً من ذلك، وتلقاها زعماء العرب وقادتها الذين ذبحت فلسطين على مذبح مطامعهم الدنية وجشعهم الخبيث... نعم! تلقوها برحابة صدر وبرودة دم... وما كفاهم ذلك حتى مكنوا اليهود - طائعين - من البقية الباقية من أراضي فلسطين التي يسكنها الألوف من عرب المسلمين، وجعلوهم عبيد اليهود، يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون.

وكانت أهالي فلسطين تأمل من ملوك العرب نصرهم... ويا ليتهم كفوها شرهم، ولم يكونوا سماسرة للمستعمرين ومنفذين لإرادتهم.. وسوف يعلمون كيف تدور الدائرة عليهم! ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

نعم! كل ما أصابنا إنما هو من محاربتنا للدين، ونبذ القرآن، وترك العمل بتعاليم الإسلام.

وما أفسد هذا الشباب الخليع المستهتر إلا هذه المدارس التي جعلت الدين قشراً لا لب فيه، وجسداً لا روح له..

ولكن قد أحيى ميت الأمل ما بشرني به معالي الوزير «النجيب الراوي»[1] - حفظه الله - من أنه جعل في المدارس - أو سيجعل قريباً - للدين والقرآن درجة وامتحاناً، وينتخب المعلمين من ذوي الثقافة الدينية والعفة والأمانة، وفقه الله لهذه الخدمة الجليلة، وإنه الجدير بمثلها، ولا ترتجي إلا من مثله.

أيها المسلمون!

عودوا إلى ما كان عليه أسلافكم تعد لكم عزتكم. اكرموا القرآن بالعمل به كي يعيد لكم كرامتكم. اترجون صلاحاً أو اصلاحاً من هذا الشباب الواهن المنجرف في تيار شهواته؟!

أصل بليتنا - معاشر المسلمين - هو الاستعمار.. وكل رزية وبلية فالاستعمار أصلها وفرعها، ومنبعها ومطلعها، وما جر علينا بلاء الاستعمار، ومكنهم من نفوسنا وأموالنا وأولادنا وأخلاقنا وتقاليدنا، إلا زعماؤنا وقادتنا.

---

(١) هو نجي بالراوي ابن المرحوم العلامة الشيخ إبراهيم الراوي، وكان وزيراً للمعارف حينئذٍ، وحاضراً في الاحتفال.

وملـوكنـا قـد أسلمـونـا للعـدي لله در ملـــوكنـــا مـــا تصنـــع!
ومـا أفسـد الإسـلام إلا عصـابـة تـأمـر نـوكـاهـا ودام نعيمهـا
واضحت قناة الدين في كف فاجر أقيم لاصلاح الورى وهو فاسد

وهل يستقيم الظل والعود اعوج؟!.. يقولون (بالزبيبة عود) أما قضيتنا: ففي الزبيبة عمود كل أحد يراه ويشكو إلى الله.

لمثل هذا يذوب القلب من أسف لو كان في القلب إسلام وإيمان

أيها المسلمون!

احفظوا أولادكم من هذا الشر المستطير والداء الذي يفسد دينهم ودنياهم.. انشئوا لهم مدارس أهلية مثقفة ثقافة دينية تتلاءم مع روح العصر، واستحضروا لهم معلمين من أهل الصلاح والفضيلة، فإن أهم واجب على مدارس أهلية أو حكومية جعل الدروس الدينية في الدرجة الأولى من الأهمية، وتجعل لها امتحاناً وشهادة.

ولا يتسنى للأهليين إنشاء المدارس الكافية للتعليم إلا بتشكيل الجمعيات الخيرية، كي تتعاون على هذه الأعمال الجليلة والمشاريع الحيوية.

وهذه «جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية» بادرة خير من أهالي الكرخ، وهي بذور صالحة يرجى بتوفيقه - تعالى - وهمة المؤسسين لها ومعاونة إخوانهم لهم أن تنمو نماء حسناً وتثمر ثمراً جنياً، يجدون فيها الهدى والهنا والخير والبركة في أنفسهم وأولادهم وأموالهم.

ومن المعلوم أن الجمعيات مثل كل كائن يحتاج في نموه وبقائه إلى غذاء، وغذاؤها المال.. فلا تتهاونوا في التعاون والمساعدة، كل حسب إمكانه ومقدوره.. والقليل من الكثير كثير. فتعاونوا واجتمعوا، فإن يد الله مع الجماعة، والاجتماع خير وبركة.

وآخر وصيتي ونصيحتي أقولها بدء وعوداً، ولا أخص بها المسلمين، بل أقول:

أيها البشر! عليكم بالقرآن، ففيه سلامتكم، بل سعادتكم.. ولو عمل الناس وأخذت الدول بتعاليمه لاستراحت البشرية من هذا التكالب والتحارب، وعرف كل حده وحقه.

القرآن اجعلوه الجامعة العربية والوحدة الإسلامية، وتجنبوا الخلافات المذهبية والخصومات الطائفية، وليعمل كل على مذهبه في فروعه بغير جدال ولا خصومة.

واقصى الأماني والآمال أن تتوحد الحكومة والأمة، فتكون الحكومة كأب بار بالرعية والرعية كابناء في معاونة الحكومة، كي يسعد الجميع، ويكون العراق كما يقال عن «جمهورية افلاطون» و«المدينة الفاضلة» للفارابي.

وأهم ما يجب على المراجع المسؤولة؛ انتخاب الموظفين المهذبين، الذين لا يقطعون الصلة بين الحكومة والرعية بسوء تصرفاتهم، ولا يجعلوا الحكومة كذئاب مفترسة لهذا القطيع الوديع باستعمال الضغط الفظيع، من الغطرسة والكبرياء والشدة إلى الرشوات وارتكاب المنكرات.

حاسبوا أنفسكم - أيها الناس - قبل أن تحاسبوا.. واجعلوا نصب أعينكم المسؤولية العظمى... ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

خطبة
الإمام كاشف الغطاء
في المؤتمر الإسلامي بباكستان

نص خطاب سماحة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء في مؤتمر علماء الإسلام بباكستان يوم السبت ١٩ جمادى الأولى سنة ١٣٧١ الموافق ١٦ فبراير سنة ١٩٥٢.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾.

قال - سبحانه وتعالى -: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾.

أشارت هذه الآية الكريمة إلى حال الأميين قبل الإسلام وبعده. والمراد بالأميين: الجاهلين من العرب وغيرهم من الأمم. وقد كان العالم، يوم ذاك، بأجمعه في الحقيقة أمياً، يتخبط في ظلمات الظلم والجهالة والغي والعمى. فأشارت الآية إلى هذه الحالة، وعبرت عن سوء هذا الحال بأوجز عبارة وأجمعها لمعاني الشقاء، وهي قوله - تعالى -: ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾.

كان البشر عموماً كسفينة في بحر عجاج تتقاذفه الأمواج، وكان العرب بالأخص في أقصى مراتب الشقاء، يعبدون الأوثان، ويعتدون بالأثم والعدوان.. يغزو بعضهم بعضاً، ويثب بعضهم على بعض... يقتلون أولادهم خشية أملاق، ويدفنون بناتهم حال الحياة حذر الانفاق.. عصابات متضاربة، وقبائل متحاربة... لا علم ولا ثقافة، ولا تفكير ولا تدبير، ولا صناعة ولا زراعة..

لا نظام ولا وئام.. عصابات وعصبيات.. تسودها القبلية، وتقودها الأقليمية، ويحكمون حكم الجاهلية.. ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾.

وبينما هم - أي العرب وجميع البشر - يتخبطون في حنادس هذه الأهوال والأحوال، من التعاسة والشقاء، والطيش وسوء العيش.. إذ أشرقت شمس الإسلام على الأنام من أفق العناية الأزلية وسماء الالطاف الأحدية.. جاء الإسلام إلى الأنام، ففتح الاسماع وكانت صماء، ونور الأبصار وكانت عمياء، وصقل القلوب بالنور وكانت ظلماء، وبدل كل وضع سيء بالأحسن ﴿ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ ﴾.

وكان أول بذرة غرسها وقاعدة رصينة أسسها قاعدة «التوحيد للخالق، وتوحيد الحقوق للمخلوق»: «الخلق أمام الحق سواء»، «لا فضل لعربي على عجمي».. سحق العنصريات ومحق العصبيات، وأباد نعرات الطائفيات، وصار يسقي هذه القذرة - بذرة التوحيد - ويتعاهدها وينميها قولاً وفعلاً، سراً وجهراً، فكراً وذكراً... ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾. «أيها الناس! كلكم لآدم وآدم من تراب. لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى».

ولما وجد - سلام الله عليه وعلى آله - أن داء التفاخر بالأنساب

صار داء مستحكماً في ذهنية العرب، بل وعموم الأنام تلك الأيام، صار يعيد ويبدي، يكرر التحذير من هذا الداء، فيقول: «يا بني هاشم! لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم تقولون نحن ذرية محمد».

ثم حقق ذلك في العيان عملياً، وأوجده خلقاً سوياً.. فوحد وآخى بين «صهيب الرومي وبلال الحبشي» و«سلمان الفارسي وأبي ذر العربي».

وقد شاعت وانتشرت كلمتنا حيث قلنا قبل عشرين سنة: «بني الإسلام على دعامتين: كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة». فكان هذا الدين دين التوحيد، دين الوحدة، دين المساواة، دين محق العصبيات وسحق العنصريات، ونبذ القوميات وعنعنات الطبقات، والتفاخر بالأنساب والتعالي والتفوق بالآباء والأمهات.

ضرب صاحب الرسالة، منقذ البشرية، رسولنا الأعظم، أعلى مثل لذلك.. فزوج بنت عمته زينب، وأمها بنت عبد المطلب سيد البطحاء، من غلامه ومملوكه وعتيقه زيد بن حارثة، فقضى بهذا على سيئتين من سيئات الجاهلية وعاداتها: سيئة التبني، أي البنوة المصطنعة ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ وسيئة التعالي بالأنساب. ولم يجعل الناس طبقات عالية وسافلة بغير العلم والتقوى.

ومشى أصحابه وخلفاؤه الراشدون على ضوء هذه التعاليم، والتزموا المشي على هذه السنة والمنهاج. وكلمة الخليفة عمر مشهورة، حيث قال لبعض امرائه حين ضربه بسوطه وقال له: متى استعبدتم الناس وقد خلقهم الله أحراراً؟.

وأجل وأجلى من ذلك قضية جبلة بن الأيهم الغساني أحد ملوك الغسانيين في الشام، حين جاء إلى المدينة بافخم أبهة وأعظم زينة. ورد «يثرب» بموكبه الملكي ليعتنق دين الإسلام. وكان يوم وروده يوماً مشهوداً، وللمسلمين عيداً سعيداً. وبعد أن أسلم وغمر الفقراء بالمنح

والعطايا، خرج الخليفة عمر إلى الحج وخرج الغساني بموكبه وبخيله ورجاله، وبينا هو يطوف وضع رجل من غمار الناس رجله على طرف مئزر الملك فانحل، فغضب الملك الغساني ولطم الرجل لطمة شديدة. فشكاه إلى عمر، فاحضر الخصمين لديه، وسأل المدعى عليه فاعترف. فقال عمر للمدعي: لك أن تقتص منه ويلزمه الانقياد لك. فقال الغساني للرجل: اشتري منك اللطمة بألف، فأبى.. ولم يزل يترقى حتى بلغ عشرة آلاف، فأبى الرجل إلا أن يقتص. ولما أحرج موقف الغساني قال: كنت أحسب أن كرامتي بالإسلام تتضاعف وتصان لا أن تسقط وتهان! ثم استمهل إلى الصباح، وغلس مع موكبه هارباً من الحرم ليلاً، وذهب من فوره إلى قيصر الروم في القسطنطينية «فروق»، فاكرمه واعطاه أضعاف ما كان يملكه بالشام. ولكنه ندم وصار يأسف ويتلهف على ما فاته من شرف الإسلام، وانشأ أبياته المشهورة التي منها:

تنصرت الأشراف من أجل لطمة ... وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
فيا ليت لي بالشام أدنى معيشة ... أروح وأغدو فاقد السمع والبصر
ويا ليتني لما أصبت بنكبة ... رجعت إلى القول الذي قاله عمر

ونحن لا نريد أن نعلق على هذه الحادثة الغريبة، ولكن محل الشاهد منها بيان صلابة الخلفاء في التزامهم تعاليم استاذهم المنقذ الأعظم مهما كلفهم الأمر وفاتهم من الفوائد الجزيلة.

وادهش من ذلك مخاصمة اليهودي مع الإمام علي بن أبي طالب - سلام الله عليه - عند عمر، حيث قال له الخليفة: قم يا أبا الحسن وقف مع خصمك! فظهر التغير في وجه الإمام.. وبعد انتهاء الخصومة قال الخليفة: يا أبا الحسن! لعله ساءك أمري لك أن تقف مع خصمك اليهودي؟! فقال: كلا! وإنما ساءني إنك كنيتني ولم تساوِ بيني وبين خصمي، والمسلم واليهودي أمام الحق سواء.

فهل سمعت أذناك أم رأت عيناك أمة كهذه الأمة وبهذه الأخلاق

الفاضلة. . ملكوا الشرق والغرب، ودكوا عروش كسرى وقيصر بأقل من نصف قرن. . ثم أخذت هذه الروح، روح الوحدة، روح المساواة، روح التوحيد، تضعف وتتضاءل حتى تلاشت، وعاد المسلمون إلى اسوء مما كانوا فيه في الجاهلية. . . تفرقة في كل أمر، وشتات في كل شيء، واختلاف وخصام في كل نظام.

ما انسلخ القرن الأول إلا ونشأت المذاهب المختلفة والأفكار المتضاربة. وأول فتنة أصابت الدين في قلبه فتنة الخوارج، ثم أعقبتها فتنة المذاهب: معتزلة، واشعرية، ومرجئة، وقدرية، وزيدية، وأموية. . . ومثله في الفروع: ظاهرية، وحنيفة، وشافعية، ومالكية، وحنبلية. . . اختلاف في الأصول، اختلاف في الفروع، اختلاف في كل شيء.

وصارت سياسة الخلفاء تغذي هذه الخلافات وتقويها كي تستغلها وتعتمد عليها على قاعدة «فرق تسد»، وصارت الممالك الإسلامية، من عهد بعيد وإلى اليوم، يضرب بعضها بعضاً ويذيق بعضها بأس بعض، حتى أوشك - لا سمح الله - أن ينطبق عليها قوله - تعالى -: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم﴾.

وانتهز المستعمرون هذه الفرصة فامتلكوهم واستهلكوهم جميعاً، وصارت الممالك الإسلامية كالفريسة الملقاة في الفلاة تنهشها الكلاب، يأخذ كل واحد منها حصته حسب قدرته وإمكانياته.

ثم أن كل دولة من الدول الإسلامية إنما نشأت وتكونت بعنوان اقليمي أو عنصري، كالعراق ومصر وإيران والأفغان وغيرها. . ولكن هذه الدولة الفتية، الدولة الباكستانية، إنما نشأت باسم الإسلام، والإسلام أولدها وكونها. فالإسلام أبوها وهي وليدة الإسلام ونسله وسلالته. فيا هل ترى إنها ستكون بارة بابيها، حافظة لعهوده، معيدة لمجده، فتسحق

العنصريات، وترعى الأقليات، وتنظر كل رعاياها بنظرة واحدة، وتعامل الجميع بالعدل والحق على السواء، وتأخذ بما رسمه القرآن الكريم والسنة النبوية، وتجعل شعارها «لا إله إلا الله والله أكبر»، وتنصر الله فينصرها، وتحفظ القرآن فيحفظها؟!.

وبما أنها نشأت باسم الإسلام وتقمصت بهذه الروح، وإلا فهي من الهند وقطعة منها... ولكنها أخذت ناحية الروح ورفضت ناحية الجسد المادي، فهي بجسدها العنصري هندية وبروحها السامية إسلامية، وهي ناحية من نواحي التصوف - نعم! ولعل من الهند نشأ التصوف - ... وبهذه السمة، سمة التقمص بالإسلام، قد امتازت هذه الدولة عن سائر الدول الإسلامية التي جعلت شعارها وشارتها الناحية العنصرية أو الأقليمية. وهذا هو مستند فتواناً بأنه يجب على كل مسلم مساعدتها ومناصرتها... ولكن إن حافظت على قوانين القرآن ونواميس الإسلام.

فيا أيها المسلمون!

تعلمون حق العلم أنه لا يعود لكم مجدكم وعزكم ومناعتكم واستقلالكم إلا برجوعكم إلى الله والانقطاع إليه، وأن يصير كل واحد منا مسلماً عملاً لا قولاً، وحقيقة لا صورة ومجازاً. وكما أن العطشان لا يرويه لفظ الماء ولو كرره ألف مرة، فكذلك لا ينفعنا قولنا «إننا مسلمون» ولو كتبناه على جباهنا ما لم نكتبه في قلوبنا، ونطبق على أحكامه جميع أعمالنا.

وها نحن وجميع إخواننا المدعوين الأماثل قد تحملنا أعباء السفر ومشقة الغربة، ملبين دعوة إخواننا الباكستانيين، مندفعين بهذا الأمل، راجين أن يكون في هذا المؤتمر بهذه الدولة المباركة، حياة للإسلام جديدة، ونهضة مباركة سعيدة... تنتعش بها الروح الإسلامية التي تؤلف روحاً وحقيقة بين العراقي واليماني الحجازي والإيراني والباكستاني،

وتقربهم مهما تباعدوا، وتوحدهم مهما تعددوا.. وتخرجنا من هذه الفوضى الضاربة اطنابها علينا، التي جرتنا إلى الاهمال والتسامح بكل شيء حتى في أمور ديننا.. نتسامح في الأمور الصغيرة، فتفوتنا المهمات الكبيرة.

نحن نقول «إننا مسلمون» ولكن تاريخنا مسيحي.. مسلمون ولكن عطلتنا يوم الأحد.. مسلمون، ولكن أكثرنا يتكلم ويتفاهم بالانكليزية.. مسلمون، ولكن لا نحسن شيئاً من العربية لغة القرآن العظيم والسنة النبوية ونحسن اللسان الأجنبي.

بلغ بنا الاهمال - أننا معشر العلماء كما يقال عنا - ربما نجتمع في المؤتمر للمذاكرة بشؤون الإسلام، وقد نسمع الآذان، ويقول المؤذن «حي على الصلاة» أو «قد قامت الصلاة» فلا نقوم إلى الصلاة.. نتجاذب أطراف القيل والقال والتخاصم والجدال.

مسلمون، ولا يهمنا شيء من أمور الإسلام كما تهمنا أمورنا الذاتية.. مسلمون، ولا يرحم غنينا فقراءنا ولا يعطف أقوياؤنا على ضعفائنا، والله - سبحانه - يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾.

فأين الإسلام؟ وأين شعائره يا كرام؟!

ولكن.. أصبح من أمراضنا الاجتماعية أننا نقول ولا نفعل، ونعلم ولكننا مثل من يجهل... ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣﴾. ونأمر بالبر وننسى أنفسنا ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾.

أيها المسلمون!

خذوا عدتكم، واجمعوا قوتكم، ونظموا صفوفكم.. فإن السياسة

العالمية السوداء تنذر البشرية عموماً، والعرب والإسلام خصوصاً، بخطر هائل، يأتي على الأخضر واليابس، ويستهلك القوي والضعيف. وهذا الاستعمار الغاشم الذي يتسمى كل يوم باسم، ويتشكل كل برهة بشكل، ويلبس كل حين لباساً... فيوماً انتداب، ويوماً حماية، ويوماً وصاية، واليوم اسموه بالدفاع عن الشرق.. العبارات شتى والحقيقة واحدة. وقد رأيتم فظائع أعماله هذه الأيام بمصر وتونس ومراكش والجزائر وغيرها.. وقد تخلصت دولة إيران - نصرها الله - من مخالبه وأنيابه ونوائبه، وما تخلصت إلا بعد عناء وكفاح، ما تخلصت إلا باتفاق كلمتها وتوحيد جهودها وتناصر ملكها وشعبها وحكومتها. فنحن نبارك لها، نسأله - تعالى - أن يوفق سائر الممالك الإسلامية لهذا الفتح المبين والعز المكين[1].

وأنا ابتهل إلى الحق - جل شأنه - أن يمنع النصر والاستقلال الصحيح لكل دولة إسلامية، وأن يجعل اجتماعنا هذا مثمراً بالثمرات اليانعة والفوائد النافعة للإسلام والمسلمين أجمعين.

خذوها أيها المسلمون مقالة جامعة، ودعوة لامعة.. صدرة حرة من كبد حزين لاب روحاني شفيق عليكم، صهرته المصائب، وحنكته التجارب، وانحلته النوائب، وابتلته الصروف، وتقلبت به الظروف... فقال داعياً: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

والسلام عليكم ورحمة الله

---

(١) كان قد ألقى الفقيد هذه الخطبة في أيام حكومة الدكتور محمد مصدق المعروف بعدائه الشديد للاستعمار. وسقطت بعد ذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المولد النَبوي ﷺ

صدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

في هذا الشهر المبارك شهر ربيع الأوّل الّذي قد يطلق عليه شهر «النور» وشهر المولود المبارك، لاتفاق المسلمين على أنّ أحد أيّامه نزلت الرحمة من السماء إلى الأرض، وانبثق النور الإلهي من الملأ الأعلى، أشرقت الدنيا كلّها بنور ربّها، وجاء من ربّ العالمين سيد الأنبياء والمرسلين بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وعلى سطح هذه الكرة حفنة تزعم أنّها من البشر وليست هي من البشر، وتسمي أنفسها بالمسلمين وما هي من المسلمين، تقيم الإحتفالات وتضع المهرجانات تكريماً وتعظيماً لهذا المولود المبارك الّذي تقول: إنّه نبيّ الرحمة، وإنّ الله أخرجنا به من الظلمات إلى النور، فيجب علينا إظهار الفرح والسرور وإعادة تلك الذكريات العليّة الطيّبة.

نعم يحتفل المسلمون بعيد مولد نبيّهم الأعظم في هذا الشهر، ولم يكن شيء من هذه الإحتفالات في القرون الأولى يوم كان الإسلام في أوج عزّه وبرج رفعته وعظمته، يوم كان المسلمون يعرفون حقّ المعرفة معنى الإحتفال الصحيح لمولد نبيّهم ﷺ.

الإحتفال الصحيح الّذي يبتهج به النبي ﷺ ويسرّه هو الأخذ بتعاليمه وإتباع سنّته والعمل بقرآنه، الإحتفال الصحيح أن يكون المسلم مسلماً حقيقة ومعنى لا صورة ولفظاً، وقد جعل سلام الله عليه للمسلم علامات كثيرة أقلّها وأوّلها أن يهتم المسلم بأمور المسلمين حيث قال: «من لم يهتمّ بأمور المسلمين فليس من الإسلام بشيء».

وعلى ضوء هذه القاعدة يجب أن نمتحن أنفسنا ونضع في الميزان إسلامنا.

ها هم اليهود في كلّ شهر أو كلّ يوم تشنّ الغارة على قرية من قرى المسلمين في فلسطين تقذفهم بالقنابل الجهنميّة، وتنسفها نسفاً وتذرها قاعاً صفصفاً، وتهلك تحت أنقاضها ومبانيها جميع من فيها، يصنعون بالمسلمين ما لم يصنعه حتّى فرعون مع آبائهم بني إسرائيل، فإنّه كان يذبّح أبنائهم ويستحي نسائهم، أمّا بنو إسرائيل اليوم فيذبّحون بالنار والحديد الرجال والنساء والأطفال، وتتكرّر هذه العمليّة منهم في كلّ سنة عدّة مرّات وهم بين سمع المسلمين وبصرهم وبين سبع دول كلّ واحدة تزعم أنّها مسلمة، وهي مشغولة بنفسها لا يهمّها من أمر أولئك المساكين مقدار بعوضة.

وهكذا الحال مع المسلمين في المغرب العربي وما تعاني تونس، ومراكش، والجزائر من فرنسا من الشنق والحرق والإعدام لأولئك الأحرار الكرام.

وأعطف بنظرك ثانياً أو ثالثاً إلى المحميات التسع وعدن واسمع إن كنت ذا سمع وبصر ما يصنعه الإستعمار الجبّار في مسلمي تلك الديار من الإستيصال والدمار، يقولون: إنّ عدد المسلمين أجمع على أقلّ تقدير أربعمائة مليون، فلو أنّ الربع من هؤلاء كانوا مسلمين حقّاً وكان فيهم أقلّ علامات المسلم وهي الإهتمام بأمر إخوانهم المسلمين لأنقذوهم من تلك

المهالك، ولو أنّ ما ينفقه المسلمون في هذه الإحتفالات من الأموال، وما يبذلونه في الموالد من مصر وغيرها ليس في مولد النبي ﷺ فحسب بل في مواليد مشايخ الطرق: كالبدري، والأحمدي والدسوقي وأمثالهم، وما يتفاخرون به من البذخ في السرادق والأضوية الكهربائيّة والمشروبات الحكوليّة وغيرها، لو تجمع هذه الأموال وترسل إلى المشرّدين من عرب فلسطين فتحفظ ما بقي من رمق حياتهم الّتي أصبحت رهن وطأة الزمهرير والمطر الغزير، وتمدّهم بالسلاح والعتاد وتحفزهم إلى الجهاد، أما كان خيراً للمسلمين من تلك الأعمال الّتي ما كان المسلمون يعرفون شيئاً منها في العصور الأولى، وما تأخّر المسلمون واندحروا وأوذلّوا إلاّ من العصر الذي شاعت وانتشرت فيه هذه المحدثات الّتي أماتت العزائم وسلبت من المسلمين كلّ الحميّة والغيرة، ولو أنّ ما يبذله العرب بل عموم المسلمين كلّ ليلة على الملاهي وفي المقاهي والخمور والفجور والمقامرات يجمعونه لإنقاذ فلسطين عوض أن تتسرب تلك الأموال إلى جيوب الأجانب والمستعمرين فتعود وبالاً علينا وسلاحاً للفتك بنا ولو أنّ الحكومات العربيّة بل الدول الإسلاميّة منعت رعاياها من صرف الأموال في تلك الموبقات، وأنفقتها في تلك المهمّات لحازت الوزن الثقيل بين الأمم وسعدت هي ورعايها، وأشهد بالله شهادة حقّ لو كان عند المسلمين ذرّة من الغيرة والإسلام بمعناه الصحيح لما صبروا وتطامنوا لهذا الذلّ والصغار وتحمّل الخزى والعار، ولما أبقوا على وجه الأرض صهيونياً يذكر نعم وما أصدق قوله سلام الله عليه: ما كره قوم طعم الموت إلاّ ذلّوا.

وزبدة المختصر والحقّ المحض أنّ البليّة ما أشعل نارها على فلسطين إلاّ الحكومات العربيّة، فهي أصل الداء، ويجب أن يكون منها الدواء، ولكنّي أخشى أن تأتي هنا كلمة أمير المؤمنين سلام الله عليه لأهل العراق عموماً أو لأهل الكوفة خصوصاً حيث يقول لهم: (أريد أن أتداوى

بكم وأنتم دائي كناقش الشوكة بالشوكة وضلعها معها)، وإذا لم تبادر الحكومات العربية الّتي يعبّر عنها الصهاينة بالدعائم السبعة المنهارة تارة وبالفئران الشبع أخرى، وأمامها (هرّ) يريد أن يبتلعها، فإذا لم يحفزها كلّ هذا التحدي إلى الوثبة وتعجيل الضربة، وتمادّت على المماطلة والتسويف كرامة لسواد عيون أسيادهم ذوي العيون الزرقاء، نعم إذا تمادوا في حبال هذا الوبال كان لزاماً على الشعوب العربيّة أن تنهض وتشق الطريق بنفسها لتأخذ ثأرها وتغسل عارها، فأمّا موتة حرّ شريفة أو حياة نظيفة:

فإمّا حياة تبعث الشرق باهضهاً وإمّا ممات وهو ما يقرب الغرب

وبعد ذلك يحسن منها أن تقيم الإحتفالات بالمواليد النبويّة والأعياد الإسلاميّة، أمّا في هذه الحال فحقّ عليهم إقامة المآتم، ولبس الحداد والتمائم، ولا شك أنّ رسول الله ﷺ يطل عليكم أيها الناس من سماء عليائه ساخطاً عليكم في هذه الإحتفالات الزائفة الّتي ما هي إلاّ لهو ولعب، وتيقّنوا أنّكم إذا لم تتداركوا هذا السيل الجارف من البلاء فلا شكّ أنّ مصيركم جميعاً إلى الفناء، ولا يبقى للعرب ذكر إلاّ في التاريخ الأسود لا غير، وتصحّ فيكم الآية الّتي إفتتحنا بها كلمتنا هذه: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾، هذا هو الإحتفال الصحيح لعيد المولد النبوي ﷺ.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
نبذة عن حياة الإمام الكبير الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء رحمه الله	٧
فتوى الإمام بشأن قضية فلسطين	١١
نداء عام	١٢
فتوى ثانية للأمام نُشرت بالصحف العراقية	١٥
صرخة داوية لفلسطين الدامية	١٧
نداء لعموم المسلمين بشأن محنة فلسطين	٢٠
خلاصة الحديث مع السفير الأمريكي	٢٢
سؤال عن الفرق بين اليهودية والصهيونية	٢٦
كلمة في الحث لأسترجاع الأرض المقدسة بكاملها	٢٨
ولله العزة ولرسوله والمؤمنين	٣٣
كيف تحل مشكلة فلسطين؟	٣٩
خطبة الاتحاد والاقتصاد	٤١
فلسطين والمؤتمر الإسلامي	٥٦
ما يلزم المسلمين	٥٨
العمل والنشاط	٦٠

العمل والنشاط ٦٠
الحفاوة والحفلات ٦١
السياسة والاصلاح ٦٣

الخطب الأربع ٦٩
الخطبة الأولى ٧١
الخطبة الثانية ٨٥
الخطبة الثالثة ١٠٣
الخطبة الرابعة ١١٧
خطبة للامام في ذكرى مولد أمير المؤمنين ١٢٩
خطبة للامام في المؤتمر الاسلامي بباكستان ١٣٩
خطبة الإمام في ذكرى المولد النبوي ١٤٧
الفهرس ١٥١